روائع القصص للشباب

حمزة العرب



بقلم عباس خضر

إهـــــــداء ٢٠٠٨

الدكتور/ بهيج محمود فضل

جمهورية مصر العربية

روائع القصص للشباب
١٣



بقلم

عباس خضر



الناشر

الدار القومية للطباعة والنشر

مقدمة

عاش أدبنا الشعبى قرونا من الزمان منعزلا عن أدب الخاصة المتداول فى المعاهد والمدارس وفى الحياة الأدبية التى تتسم بالثقافة والدراسة ، أو الأدب الرسمى كما يسميه بعض الدارسين الآن . وكان ينظر اليه باستهانة وازدراء ، لعدة أسباب ، منها تعالى الخاصة والقلة المتعلمة على سواد الشعب الذى يتداولها والذى كان يعد فى نظرهم كما مهملا لا قيمة لما يصدر عنه وما يشتغل به ، ومن هذه الأسباب اشتمال القصص على خيال خرافى لم يكن يعترف به فى تراثنا الأدبى ، وكذلك ما فى أسلوبها من ركاكة وعامية لا يسيغهما الذوق المطبوع على الجزالة والتفاصح .

لم يكن أحد من مثقفينا ، حتى فى أوائل النهضة الحديثة ، يلتفت الى ما فى أدب الشعب العربى من ذخائر قصصية تقوم دليلا على عراقة الفن القصصى فى بلادنا ، برغم الاهمال ، بل الاضطهاد ، الذى لقيه من الأدباء والمؤلفين الخواص أو الرسميين ، وقد بدأ

الاهتمام بدراسة بعض جوانبه بعد أن التفت اليه الأوربيـــون وترجموا قصص « ألف ليلة وليلة » الى لغاتهم وما كان لهــذه القصص من تأثير فى الأدب الغربى .

وليس من غرضى الآن أن أكتب دراسة لهذه الناحية التى وفاها الأستاذ فاروق خورشيد فى كتابه « الرواية العربية » وكتابه المشترك مع الدكتور محمود ذهنى « فن كتابة السير الشعبية » انما أريد أن أشارك فى حركة البعث التى بدت طلائعها ، نتيجة لشعور شعبنا بذاته وبحثه عن مقوماته الأصيلة وجذور فنونه وآدابه ، بعث التراث الشعبى الذى أودعه أجــدادنا مشاعرهم وأحلامهم وبثوا فيه عطر الفن الذى هدتهم اليه فطرتهم السليمة الصادقة .

وذلك بتقديم عمل أدبى يعتبر قمة فى أدبنا الشعبى ، وهو قصة حمزة العرب أو « حمزة البهلوان » المارد العربى القديم الذى خرج من قلب بلاد العرب وراح يحطم أغلال الظلم والاستعباد ويشيع العدل والخير فى أرجاء العالم الذى وصل اليه خيــال قصاصينا السابقين .

وهذه القصة ، قصة حمزة البهلوان ، هى فيما أعلم أكمل عمل فنى فى أدبنا الشعبى ؛ بل أستطيع أن أقول انها رواية متكاملة ،

وأن فن السير الشعبية العربية ، كسيرة عنترة وسيرة سيف ابن ذى يزن وغيرهما قد تطور فى هذه القصة ، وأصبح بها رواية لها خصائص الفن الروائى العالمى . ونستطيع الآن أن تقول بأن هذا الفن لم ينشأ فى أوربا فقط ، فان رواية حمزة البهلوان كتبت منذ أكثر من تلثمائة سنة ، أى أنها أسبق من أول رواية أوربية معروفة ، وهى « دون كيخوتة » لسرفانتس الأسبانى ، ولا يضيرها أنها مجهولة المؤلف على خلاف دون كيخوتة ، مما يسلكها فى عداد « الفولكلور » .

ومن مظاهر تطور الفن الروائى العربى فى هذه القصة أن أبطالها الرئيسيين كلهم خياليون ، فليس حمزة مثلا شخصية معروفة فى التاريخ مثل عنترة وسيف بن ذى يزن والظاهر بيبرس.

ولو أن أدبنا الشعبى أخذ اعتباره منذ ذلك الحين ، ولم ينقطع تطوره بالتعالى عليه من قِبَل الخاصة أولا ثم بالانبهار بحضارة الغرب وآدابه ، لصار لنا فن قصصى متطور من هذه الجذور له سماته الخاصة وان كان يلتقى فى النهاية ، وبحكم الاتصال ، بالأصول الفنية العالمية .

لم تكتب هذه الرواية لمجرد التسلية وتلهية الناس ، كما زعم بعض القدماء ومن تابعهم من المحدثين ، وانما هى — الى ما فيها

من امتاع وتشويق — ترمى الى موضوع قومى وانسانى فى وقت واحد ، هو أولا الدفاع عن العرب ومقاومة الشعوبية ، وثانيا الدفاع عن الفضائل والقيم الانسانية التى يتصف بها العرب ، ويرمز اليها الايمان بالله ، ومكافحة الشر والطغيان والرذائل التى ترمز اليها عبادة النار . وعلى ذلك كله يدور الصراع الدرامى فى القصة .

والعنصر الخرافى فيها ، الذى يتمثل فى عابد الكهف والخضر عليه السلام ليس مقصودا لمجرد التسلية وليس أساطير تفسر مظاهر كونية ، بل هو مستخدم فى خدمة الغرض العام كسلاح لتغلب الخير على الشر حين يعجز السلاح الواقعى عن أداء رسالته .

ومن الظواهر الانسانية فى الرواية أنها — وهى ترمى الى اعلاء شأن العرب — لم تسخر ولم تنتقص من شأن الشعوب الأخرى ، بل وجهت الاهتمام الى مقاومة الحكام والأفراد المتعجرفين الذين يستهينون بالعرب ويعتبرونهم همجا لا يصلون الى مستوى أبهتهم وفخارهم .. وانتهت القصة بالمصالحة والمصاهرة بين العرب والفرس .

وبمنتهى اللباقة وسعة الأفق تجنبت القصة التفريق بين الأديان السماوية واتخذت الايمان بالله اطارا عاما لفكرة الخير العام ورمزا لدور الأبطال الايجابيين المحبوبين فيها .

أما دورى فى هذه الرواية فهو كتابتها والتصرف فى صياغتها وبعض مضامينها بحيث تخرج فى صـــورة تلائم ذوق العصر . والمعروف فى الأعمال الفولكلورية أنها لا تثبت على صـــورة واحدة ، بل يتصرف فيها ويضيف اليها كل من يحكيها أو ينشدها أو من يتناولها أى تناول آخر . وما عملى هذا الا مرحلة تطويرية من هذا القبيل . وأرجو أن تكون بعد ذلك هى وأمثالها من آدابنا وفنوننا الشعبية مصدر الهام لأعمال أدبية وفنية جديدة .

عباس خضر

١ ـ الحلم

استيقظ « كسرى أنو شروان » من نومه خائفا ، وظل أكثر من ساعتين يعانى القلق ، لأنه رأى فى منامه حلما فظيعا أقلق باله وأزعجه . ثم عاد الى النوم ثانية فما لبث أن رأى نفس الحلم وشاهد ما شاهده أولا ، فاستيقظ ثانيا وهو عـلى حالة من الاضطراب أشد من الأولى ولم يستطع النوم ، فبقى ساهرا ينتظر قدوم الصباح ليخرج الى ايوانه ويتخلص من أوهام ذلك الحلم المزعج ، وليستدعى وزيره « بزرجمهر » فيقص عليه ما رأى ، فليس هناك من هو أقدر على تفسير هذا الحلم من « بزرجمهر » الحكيم الواسع المعرفة المطلع على ظواهر الأمور وخفاياها والملم بمختلف لغات العالم .

فلما أقبل الصباح وأشرقت شمسه لبس الملك ثيابه وخرج بموكبه الى الايوان يسير بين يديه ألف من الفرسان الأشـــداء ، ويمشى وراءه ألف غيرهم . وجلس على سرير الملك المصنوع من الذهب الخالص وحوله كراسى كثيرة مصنوعة كذلك من الذهب ومعدة لوزرائه ورجال دولته .

أقبلت الحاشية والبطانة من أهل المناصب والمراتب فى دولة الفرس العظيمة ، ودخلوا الى مجلس الملك واحدا بعد واحد ، وكان كل منهم عندما يصل الى أمام الملك يسجد ويرجع الى كرسيه . ولم يخف عليهم ما يبدو على الملك من الهم والكآبة ، ولكن لم يجسر أحد منهم أن يتكلم أو يسأل الملك عن حـــاله الى أن وصل الوزير « بختك بن قرقيش » فسجد ثم أخذ مجلسه الى جانب كسرى وحياه بتحية المجوس وعبدة النار قائلا :

— حيتك النار يا مولاى وخدمتك السعادة .

— وحيتك النار يا بختك .

— لتأذن لى يا سيدنا الملك أن أسأل عن حالك وعن سبب الكدر الذى نراه يعلو وجهك مع أن البلاد فى أمان واطمئنان ، وكل الملوك تهابك وتخشى بأسك ، وما من أحد من العمال والولاة والمجاورين لدولتنا خرج علينا أو اعتدى على حدودنا ، وصحتك يا سيدى الملك — كما أراها — تبدو جيدة .

— اعلم أيها الوزير أنى رأيت حلما كدرنى وأقلقنى وبقيت معه حتى هذه الساعة مضطربا لا أشعر براحة ، وانى أحب أن أستفسر من وزيرى « بزرجمهر » عن هذا الحلم .

— ان شاء سيدى الملك أخبرنى بهذا الحلم وأطلعنى عليه .

كان كسرى يعلم أن وزيره « بختك بن قرقيش » لن يفيده شيئا فى تفسير الحلم لأنه لم يؤت مثل ما أوتى « بزرجمهر » من العلم والمعرفة ، ولكنه شعر برغبة فى أن ينفس عن صدره ويقص للحاضرين ما رآه فى نومه ، قال :

— رأيت نفسى جالسا على سريرى هذا فى ايوانى هذا منفردا لا أحد يجلس معى ، أشعر بجوع شديد وشوق عظيم الى الطعام . ثم قدمت الى مائدة من الذهب عليها صحن من العاج ومنقوش بالنقوش الفارسية وبداخل الصحن المذكور وزة كبيرة محمرة بالسمن ، تنبعث منها رائحة شهية تاقت اليها نفسى كل التوق ، وحركنى جوعى الى أن أتناول من تلك الوزة وأشبع جوعى . واذا بكلب هائل المنظر قصير القوائم كبير الرأس يغطى جسمه وبر كثيف يهجم على ، ونبح فى وجهى ، وكشر عن أنيابه ، فجفلت منه ورجعت الى الوراء ، فتقدم من الوزة وأخذها بفمه وأراد الخروج من الايوان وأنا أتحرق وأتململ ، والجوع يأخذ بى

ويزيدني ضعفا ، ولا أقدر على استخلاص طعامى من فم الكلب .
ثم رأيت أسدا عظيما قد دخل من الباب قبل أن يخرج الكلب ، وحالما وصل اليه ضربه بيده فألقاه ميتا وتناول الوزة من فمه وأعادها الى ، دون أن يلحق بها أى مكروه . استيقظت من نومى مضطربا لا أعرف القصد من هذا المنام .. ولابد له من سبب .

ــ لا يرهب سيدى من هذا المنـــام ، فما هو الا من قبيل الأوهام ، وهو يحدث كثيرا للأنام ، ومن المعلوم أن المرء يرى على الدوام مثل هذه الأحلام . وهى تحدث غالبا من الطعام ، وقد تكون من أسباب أخرى . ولكنها على كل حال لا تكون ذات نتيجة ولا تدل على شيء يوجب اضطراب سيدى الملك وتكدره .

ــ كيف لا وقد رأيت الحلم مرتين بنفس المعنى والحالة ، ولو لم يكن له دليل مخيف لما تكرر ولما كنت أشعر فى نفسى بهذا الكدر الذى أريد أن أتخلص منه فلا أستطيع . وانى أعرف جيدا أن هذا الحلم لا يعبره ولا يفك عقدته الا « بزرجمهر » فهو خبير بعلوم العالم وتفسير ما غمض من الأشياء ، وأما أنت فلا معرفة لك بمثل هذا الأمر .

ولم يتم الملك كلامه حتى دخل الوزير بزرجمهر فوقف له الحاضرون احتراما ، وتلقاه كسرى بالترحاب وكأن هما سقط عن

قلبه بقدومه وما أن أخذ بزرجمهر مجلسه حتى بادره كسرى قائلا :

— أنت تعلم أيها الوزير العاقل الحكيم أنى اصطفيتك واتخذتك مدبرا لجميع أحوالى وفوضت اليك الرأى الأول وأطلقت لك الحرية فى أمر العباد ، وما ذلك الا لثقتى بك واعتقادى أنك صادق لا تخفى عنى شيئا ولا ترضى الا ما به صالحى وصالح بلادى ومملكتى .

— ما أنا الا عبد مشمول بنعمتكم واكرامكم ، وانى ما زلت على الأمانة لدولتكم والوفاء لكم . وهأنذا أنتظر ما تأمرون به .

— رأيت فى الليلة الماضية حلما هائلا راعنى جدا وألقانى فى اضطراب عظيم ولا راحة لى الا اذا فسرته تفسيرا واضحا وأخبرتنى بما يكون منه .

وقص كسرى أنوشروان على وزيره بزرجمهر ما رآه فى المنام بتفاصيله ووعده أن يكون راضيا عنه مهما كان تأويل الحلم ومهما كانت عاقبته ، حتى يمكن التدبير لما عسى أن يكون من قحط أو حروب أو ما شاكل ذلك .

أطرق بزرجمهر وجعل يفكر برهة وهو يسأل الله توضيح الحقيقة واظهار الخفايا ، فقد كان بزرجمهر مؤمنا بالله ، على



خلاف دين المجوسية السائد فى دولة الفرس . ولما تبينت له مرامى الحلم وعرف بتوفيق الله ما سيحدث للبلاد رفع رأسه وقال :

— اعلم يا مولاى أن الله سبحانه وتعالى — وهو الاله الذى أعبده — أراد أن يظهر لكم ما سيقع لدولتكم قبل أن يحدث بسنين ، فالمائدة التى رأيتها قدمت اليك من الذهب الوهاج هى مدينتك وعاصمة ملكك : هذه « المدائن » التى نحن بها ، والصحن والوزة هما خزانتك والسرير الذى تجلس عليه الآن .

وسكت بزرجمهر قليلا ، فقال الملك ملهوفا :

— وما الكلب الذى هجم على الوزة .. ؟

— فارس يظهر فى حصن خيبر ، يطرق هـذه البلاد بجيشه فيدوخها ويحاصر هذه المدينة ويمتلكها ، ويملك الكرسى ويطردك من بلادك ..

زام الحاضرون فى همهمة .. وأسرع الملك وهو يرفع صوته ليخفى جزعه :

وما الأسد ؟ قل لى بحق النار .. ولا تخفه عنى شيئا :

— انه فارس عربى يظهر فى بلاد الحجاز ، عظيم القـدر والشأن ، يأتى من برية الحجاز ، ليستخلص لك ملكك ، ويرجعك الى سريرك ، ويقتل عدوك .

ولم يقل بزرجمهر لكسرى كل الحقيقة ، فقد تراءى له أن دولة الأكاسرة قد بلغت شيخوخة الحياة وأن الفارس العربى الذى يظهر فى الحجاز سيرفع نير الفرس عن العرب ، ويحرر مملكة النعمان من الخضوع له ، ويهدم معابد النيران ، وينشر دين الله بين عبدة الأوثان .

لما سمع الملك كسرى من وزيره ذلك الكلام وقع فى نفسه موقع التصديق ، ولم يستغرب وقوع ما تنبـأ به بزرجمهر ، فقال له :

— هل يمكنك أن تعرف أيها الوزير العاقل ان كان الفارس العربى الذى أشرت اليه قد ظهر ووجد فى الحجاز ، أو لم يظهر الى عالم الوجود ..

— ان ذلك لا أعرفه يا سيدى ولم يظهر لى ، والذى عرفته أخبرتك به .

— ألا تعرف فى أى مكان من الحجاز يظهر هذا الرجل الذى بان لك أنه يخلص بلادى من الأعداء ؟

— انه يظهر فى مكة ، وهى البلد الذى تأتى اليه العرب فى كل عام للقيام بواجبات الزيارة .

— أريد منك أن تذهب الى مكة منذ اليوم وتبحث عن هذا الفارس هل ولد أو لم يولد ، واذا كان قد ولد فاتصل بأبيه وادفع اليه الهدايا والأموال التى سنحملك اياها من أجله . ودعه يربى الغلام على نفقتى ويعتنى به ويهيىء له كل الأسباب النافعة ، حتى اذا وصلنا الى الزمان الذى أشرت اليه يكون قد كبر فى طاعتنا ، فنرسل اليه ونستدعيه فى الحال .

— سمعا وطاعة يا ملك الزمان .

٢ - يوم سعيد

أمر الملك أن تحضر الهدايا الثمينة من كل ما غلا ثمنه وخف حمله ، وأخذها بزرجمهر وسار قاصدا بلاد العرب ومعه جماعة من الفرس يسيرون فى خدمته ، وقد شعر بمنتهى السرور لمسيره الى مكة ، فسيزور بيت الله الحرام ، ويشاهد ما دلت عليه الدلائل ، ومنى نفسه بالمستقبل السعيد الذى يرجوه حينما يرى الفارس العربى يحطم معابد النار ويخلص العرب من ظلم الفرس ، ويذل الدولة الكسروية ، ويصير له شأن أى شأن .

ظل الوزير سائرا حتى وصل الى « الحيرة » فخرج الملك النعمان لاستقباله ورحب به ، وأقام بزرجمهر فى ضيافة النعمان

ثلاثة أيام ، ثم سار الى مكة ، ودخلها ، فاستقبله حاكمها « الأمير ابراهيم » وكان رجلا يعبد الله ويتقيه ، ويعلم أن بزرجمهر وان كان وزير الملك الأكبر كسرى أنوشروان الذى يشمل ملكه بلاد العجم والعرب والترك والديلم ، الا أنه من أهل المعرفة والآداب ومشهور بالعلم والذكاء .

مكث بزرجمهر فى ضيافة أمير مكة ثلاثة أيام ، والمضيف لا يعلم الغاية التى جاء من أجلها الضيف الكبير ، وكان بزرجمهر فى خلال هذه المدة يفكر فى مهمته وكيف يعثر على ضالته المنشودة ، ثم سأله سؤالا فى منتهى الغرابة ..

— هل زوجتك حامل ؟

فدهش الأمير ابراهيم من هذا السؤال ، ولكنه لم يظهر دهشته لثقته بالوزير الأريب ؛ فأجابه :

— نعم ، وهى فى الشهر الأخير .

— اعلم يا ابراهيم أنى بالهام الله تعالى أتيت لأخبرك بأنها ستأتى بولد ذكر يرتفع مقامه ويعلو شأنه ويكون أشجع من حمل السيف وركب الجواد .

وحكى له ما كان من حلم كسرى أنوشروان صاحب التاج والايوان ، ففرح ابراهيم بالبشرى ، وسر منها خاصة عندما علم

أن ولده سيكون سبب خلاص العرب من العجم وتدمير معابد النيران والقضاء على الظلم والطغيان .

وأقام الوزير بمكة خمسة عشر يوما ، وفى اليوم السادس عشر وبينما كان جالسا مع الأمير ابراهيم وكبار العرب فى ديوانه ، جاء المبشرون يبشرون الأمير بأن زوجته وضعت ولدا ذكرا ، فكاد يطير من الفرح لأنه أول ولد له ، ولما سمعه عنه قبل ولادته من بزرجمهر ؛ وغمر المبشرين بالعطاء .

ثم أقبل وجهاء القبيلة يهنئون الأمير ابراهيم بالمولود ، وجلسوا معه ينتظرون رؤية الغلام ، حسب العادة المألوفة ، وهى أن يؤتى بالولد الى أبيه ويعرض عليه بين رجال قبيلته ليراه الجميع . وبعد قليل جىء بالغلام فأخذه والده ونظر فى وجهه فتعجب من حسن طلعته ونصاعة جبهته وكبر جسمه . وبعد أن قبله قدمه للوزير بزرجمهر ، فأخذه وأمعن النظر فى وجهه وجعل يسبح بحمد الله على ما يخلق وما يدبر . ثم التفت الى الأمير ابراهيم وقال له :

— أوصيك أيها الأمير الكريم على مسمع من رجال قومك — بالاعتناء بهذا الغلام وتربيته وتهذيبه وتعليمه ، فهو صاحب السيف والقلم والبند والعلم والذكر الحميد الذى يشتهر بين العرب

والعجم ، وانى ما أتيت الى هذه البلاد الا للبحث عنه ورؤيته . وكل ما أتيت به من عند كسرى فهو على اسمه ولأجل نفقته لكى ينشأ على اسم الدولة الكسروية .

فقال الأمير ابراهيم :

— انه ولدى ، والاعتناء به من واجبى ولا سيما أنك أخبرتنا بمستقبل حياته بما أعطيت من العلم والحكمة ، وأرجو أن تسميه بالاسم الذى تختاره .

قال بزرجمهر :

— ان اسمه « حمزة » .

وكان بزرجمهر يعرف أن اليوم الذى ولد فيه حمزة يوم سعيد وأن كل من يولد فيه يكون سعيدا ، وطلب أن يؤتى الى الديوان بكل ذكر ولد بالمدينة فى هذا اليوم . وشاء القدر والتدبير الآلهى أن يولد فى اليوم نفسه ثمانمائة غلام أتى بهم جميعا وقدموا الى وزير كسرى ، فجعل يسمى كل واحد منهم ويعطى لأبيه مبلغا من المال ليربيه على نفقة الملك كسرى ويكتب اسمه عنده ويوصى به .

وكان أحد عبيد الأمير ابراهيم متزوجا بجارية سوداء ، وكانت فى ذلك اليوم حاملا فى شهرها السابع ، فلما رأى الوزير يدفع الأموال الى آباء الأولاد كى يربوهم على نفقة كسرى ويكتبوا

من رجاله — لعب به الطمع ، فاندفع يجرى الى زوجته ويقول لها :

— ان الوزير يدفع الأموال الى آباء الأولاد الذين يولدون اليوم ، فيجب أن تضعى الآن .. عسى المولود يأتى ذكرا فينالنا خير عظيم .

— ليس الآن وقت ولادتى .

— يجب أن تلدى الآن !

— كيف ألد اليوم والله لم يأذن بعد ؟ !

فغضب الزوج وجعل ينهر زوجته ويضربها على ظهرها وهى تصيح حتى سقط الولد .. وتشاء العناية الآلهية أن يكون حيا وفى غاية الصحة .. ورآه أبوه ذكرا فأسرع به الى الوزير بزرجمهر ملفوفا فى خرقة قديمة . وكان أحد جيرانه قد سبقه وأخبر الأمير ابراهيم بما وقع بينه وبين زوجته ، فأمر أن يأخذ الغلام منه وأن يقيد ويضرب جزاء له على ما فعل . ولكن الوزير طلب أن يقدم اليه الولد ، ونظر فى وجهه متأملا .. وفى الحال أمر أن يطلق العبد وقال للأمير :

— ذلك من تدبير الله سبحانه وتعالى .. خذ هذا الغلام واعتن به كل الاعتناء ، انه « عمر » ساعد حمزة الأيمن ، وعصاه التى يتوكأ عليها فى حياته ، وسيحتاج اليه فى الأزمات والمواقف الحرجة ..

— أمرك يا سيدى الوزير .. سأربيه مع ولدى حمزة وأجعله رفيقا له .

لم يعد هناك سبب بعد ذلك لاقامة بزرجمهر فى مكة ، فغادرها عائدا فى ركبه الى « المدائن » مودعا من الأمير ابراهيم ورجال قبيلته . وفى الطريق مر بالحيرة ونزل ضيفا على النعمان عدة أيام وحدثه بما وقع له فى مكة . ولما وصل الى بلاد العجم قصد الى ايوان كسرى ، ودخل عليه ، فاستقبله الملك وهو فى غاية الشوق الى أن يعرف ما حدث ، فحكى له الوزير ما شاهده وما فعله الى أن قال له :

— وقيدت اسمه من رجالك وسميته حمزة العرب ، ورأيت أن أكتب كل ذكر يولد فى ذلك اليوم بمكة من رجال دولتنا ، ومن عجائب الدهر أن يولد بمدينة صغيرة فى يوم واحد ثمانمائة طفل ذكر دون أن يكون فيهم أنثى واحدة ، فعرفت أن هذا من دلائل التوفيق لحمزة ، اذ يكونون ثمانمائة فارس يركبون بين يديه ويسعدون بسعده ويجرى عليهم ما يجرى عليه .

فرح كسرى بما سمعه من وزيره وأسبغ عليه مزيدا من الانعام ، وشكره على اهتمامه بأمر الدولة ودفع المصائب عنها قبل أن تحل بها وعاش بعد ذلك مرتاح البال ، واستأنف حياته بما اعتاده من البذخ واللهو .

٣ - صديقان

وأما ما كان من الأمير ابراهيم أمير مكة فانه دوام على الاعتناء بولده وهو مسرور بما سمعه من الوزير بزرجمهر من أن ابنه سيكون السبب فى خلاص العرب من نفوذ العجم وتعزيز الدولة العربية وابادة الدولة الكسروية . وكان يعتنى أيضا بتربية عمر ابن العبد لما علمه من أنه سيكون تابعا لولده ونافعا له ، وقد لاحظ أن هذا الغلام الأسود وجهه صغير مستدير وعيناه ضيقتان مستديرتان كأنهما ثقبان ينفذ منهما شعاع ثاقب ورجلاه طويلتان دقيقتان كأنهما خيطان ، وكان كثير الحركة لا يكاد يستقر فى مكانه .

ولما بلغ حمزة أربعة أعوام كان الذى يراه يظنه ابن عشرة أعوام لامتلاء جسمه وطول قامته ونمو الهيبة التى كانت تبدو دائما على جبينه ، ولما تجاوز هذه السن دفعه والده الى معلمين ومهذبين ، فتعلم العلوم النافعة ، ونشأ على التقوى وعبادة الله وحميد الصفات . واتخذ عمر أخا له ، وقد أحب كل منهما الآخر ، ولم يكن أحدهما يقدر على مفارقة أخيه .

كان عمر سريع الجرى لدقة ساقيه ونحافة جسمه ، وكان مع ذلك قويا صلب العود ، أولع من صغره بالركض والقفز من الأماكن العالية ، وما بلغ العاشرة من عمره حتى صار من أبرع العدائين وأشدهم ، وقد تعلم رمى النبال حتى أصبحت نبلته لا تخطىء الهدف ، وكان يوقع الأذى بالأولاد الذين يشتبكون معه فى الشوارع والأزقة ، ويسطو على البساتين ، والناس تشكوه الى حمزة دون الأمير ابراهيم خوفا منه . كان ذات يوم بالقرب من بستان فنظر داخله شجرة رمان كبيرة الثمر ، فأعجبته ، وقال فى نفسه لابد أن آخذ منها لأخى حمزة ، وضرب رجليه بالأرض ، فارتفع الى أعلى الحائط ، ووضع يديه عليه وقفز الى الداخل كأنه العفريت .. غير ملتفت الى صاحب البستان ، وقصد الى شجرة الرمان ، فتسلقها وجعل يقطف من ثمرها ويضع فى عبه .

وإذا صاحب البستان واقف تحت الشجرة ينظر اليه ويصيح به :

— ويلك يا عبد السوء .. انى كل يوم أجىء الى البستان فأرى الأشجار مكسرة الفروع وأثمارها منهوبة .. ولا أعرف من الذى يفعل ذلك .. حتى رأيتك الآن ، فلابد من ضربك وتأديبك .

— انى ما أتيت بستانك الا هذه المرة .

— أتيت كثيرا أيها الملعون .. فانزل والا صعدت اليك ورميتك من أعلى الشجرة . فقفز عمر من أعلى الشجرة الى الأرض فى سرعة البرق والرمان يملأ عبه .. وقبل أن يتمكن الرجل من الدنو منه أخذ قبضة رمل من الأرض وسددها الى وجهه وفر هاربا . وبقى صاحب البستان يتوجع ويدعك عينيه ويتحسر على أنه لم يقبض عليه ليقتله ، وظل أكثر من ساعة ينفض الرمل عن عينيه ويغسلهما بالماء . ثم قصد الى ديوان الأمير ابراهيم ودخل عليه موجع العينين ، وشكا اليه من الغلام عمر وما فعل . فاغتاظ الأمير وأرسل فى احضار عمر ، وكان عمر قد وصل الى أخيه حمزة ودفع اليه الرمان ، فسأله : من أين هذا ؟ فحكى له قصته مع الرجل ولم يخف عنه شيئا مما حدث ، فضحك حمزة أولا ، ثم أمسك عن الضحك وقال لعمر فى لهجة حادة صارمة :

— لماذا تصنع هذا الفعل ؟ ان مال الناس محفوظ ، وليس من

حقنا التعدى عليه ، وقد أوصيتك مرارا ألا تتعدى على أحد .

— انى أحب أن أطيعك ، ولكنى رأيت هذا الثمر الشهى ، فتاقت نفسى أن أطعمك منه ، واذا لم أحضر لك منه لا يرتاح بالى ولا يطمئن قلبى .

وفى هذه اللحظة دخل رسول الأمير وقال لحمزة : ان أباك أرسلنى لآخذ عمر ، فأدرك حمزة أن هذا الطلب لابد أن يكون بسبب حادث البستان ، فنهض ومعه عمر ودخل على أبيه وقبل يده ، ثم تقدم عمر وأراد أن يقبل يد الأمير ، فمنعه ونهره قائلا :

— كيف تتعدى على أموال الناس وتتقرب منى ؟

وقال للعبيد :

— خذوه فألقوه الى الأرض واضربوه خمسين سوطا .

التف العبيد بعمر وحاولوا التمكن منه ، ولكنه دفعهم عن نفسه ، وصاح مستجيرا بأخيه حمزة الذى أخذته النخوة ونسى وجود أبيه .. فانقض على العبيد وأخذ واحدا منهم بين يديه ورفعه الى ما فوق رأسه وضرب به الباقين فصرعهم ..

لما رأى ذلك الأمير ابراهيم لعب به الغضب من فعل ابنه ، وصاح به :

— أتمزق حرمتى ولا تراعى جانبى !

فتنبه حمزة الى ما فعله ، وسكت . لم يجب بكلمة . وهم به أبوه يريد أن يؤدبه ، ولكن سادة القوم قاموا اليه وطلبوا الصفح عنه ، وهم يعجبون من قوته وشجاعته مع صغر سنه .

وتقدم حمزة من أبيه يعتذر اليه :

— اسمح لى يا أبى .. ان الحدة قد دفعتنى الى ذلك ، لأننى أعلم أن عمر مظلوم . فهو لم يقصد سرقة الرمان الا لأجلى ..

— أمن أجلك يعتدى على أموال الناس ؟

— كان فى وسع الرجل بعد أن عرف أنه أخى أن يسكت عنه ويأتى الى فأمنعه من العودة ثانية الى البستان ، وأعوضه عن الرمان الذى أخذه ، ولا سيما أن عمر صغير قاصر ، وما على القاصر من حرج .

وأصلح السادة الحاضرون الأمر ، فأرضوا صاحب البستان وصرفوه ، واستعطفوا الأمير على ولده وعمر ، فصفح عنهما .

٤ - فارس

في اليوم التالى لذلك الحادث جاء سادة المدينة الى الأمير ابراهيم ، وقد اتفقوا على أمر ، سلموا عليه وجلسوا بين يديه ؛ ثم قال قائلهم :

— اننا أيها الأمير لا نزال تتذكر كلام الوزير بزرجمهر وما أشار اليه من أمر ابنك حمزة ، وقد ثبت عندنا ذلك بما رأينا منه أمس ، فهو وان كان لا يتجاوز عشر سنوات فقد فعل ما لا تفعله الجبابرة ، لهذا جئنا اليك نسألك أن تعلم ابنك فنون القتال وتدربه على ركوب الخيل ، لكى يتم ما بشر به بزرجمهر من أنه يخلص العرب من العجم ويرفع عنهم ذلك النير الذى تحملوه زمانا طويلا .

قال الأمير ابراهيم :

— لقد أصبتم بذلك ، وانى أفكر فيه دائما ، وكنت أحب أن أؤجله الى أن يبلغ الخامسة عشرة ، الا أن ما فعله أمس كاف ليظهر لى قوته ووجوب تدريبه .

ثم دعا الى اجتماع عام فى ساحة كبيرة خارج المدينة ، حضره كبراء القبيلة وفرسانها وجمهور كبير من الناس ، وتصدره الأمير ، وحضر حمزة وعمر ، ووقف حمزة أمام أبيه وقبل يده ، فقال له أبوه بصوت يسمعه الجميع :

— اعلم يا ولدى أن أعداءنا كثيرون ، ومن عادات العرب أن يتعلموا فنون القتال ، ليكونوا دائما على استعداد للدفاع عن القبيلة اذا أغار عليها الأعداء ، ومن كان أشد بأسا كان له الفوز والنجاح ، ولهذا قد عينت هذا المكان ليقام فيه كل يوم ميدان طراد ونزال ، وقصدى أن تتعلم فنون الحرب وتتخرج فيها ، عسى الله أن ينصر العرب على يديك .

ففرح حمزة أشد الفرح وقال :

— هذا هو الذى أريده ، وطالما تاقت نفسى اليه .

وقدم الى حمزة جواد من الخيول العربية الأصيلة ، فاعتلى ظهره وأطلق له العنان ، وأخذت الفرسان تحيط به وتركض أمامه بخيولها فيتأثرها ثم ينطلق أمامها وهو ثابت على ظهر الجواد كأنه قطعة من الحديد .

ظل حمزة يتدرب على ركوب الخيل كل يوم ، وما انقضى شهر حتى حذق كل فنون اللعب على الخيل .. كان ينزل الى الأرض ويعود الى ظهر الجواد أسرع من البرق ، ويدور حتى يختفى تحت بطنه وعنقه ويستتر به من كل جهاته وهو راكض ، ففاق بذلك كل فارس . وأخذ بعد هذا يتدرب على استعمال السلاح وأدوات الحرب ، حتى أصبح فى مدة قصيرة على درجة عظيمة فى فنون الضرب والنزال .

ودعا الأمير ابراهيم الى الاجتماع العام فى الميدان لامتحان ولده فاجتمع خلق كثير من شبان وشيوخ ونساء ، وأقبل حمزة فوق جواده كأنه البرج الحصين وعلى وجهه لثام لا يظهر من تحته الا عيناه وهما تقدحان كالجمر ، وعلى رأسه خوذة من الحديد ؛ وقد دجج بالسلاح من رأسه الى وسطه ، بيده رمح مسنون ، ويلاصق جنبه سيف عريض وبين يديه عمر كأنه النار ذات الشرر .. يسبق الخيول بقفزه وخفة سيره .

ولما بلغ حمزة مكان أبيه ترجل عن جواده وقبل يده وقال له :

— انى أسألك أمرا يا أبى ولا أحب أن تمنعنى عنه .

— ماذا تريد ؟

— أريد أن تأمر فرسانك وأبطالك أن يقفوا جميعا فى جبهة واحدة ، وأقف أنا وحدى فى الجبهة الثانية ، فمن أصابته جريدتى

خرج من الميدان ، ومن أصابتنى جريدته كان له على حق التقدم . وبعد أن يفرغ الجميع نعود الى الضرب بالرماح . فمن وصل رمحى اليه انعزل من الميدان .

استعظم الأمير ابراهيم هذا الطلب وقال لولده :

— ان ذلك يغيظ قومنا ، وانك لا تقدر على ما تقول ، فالفارس المحنك يصعب عليه أن يقاتل وحده مئات من الفرسان ، وأنت لم تقاتل قبل الآن ولم تجرب الوقائع والأهوال :

— ان قومنا اذا رأوا منى ما يرون فسيفرحون ، وسوف تنظر بعينك ما أفعل أمامك .

فأجابه أبوه الى طلبه ، ونظم الميدان فى جبهتين ، وقف الفرسان فى جبهة ، ووقف حمزة فى الجبهة الثانية . وابتدأ اللعب بالجريد ، فجعل حمزة يضرب بجريدته فيصيب الرجال ، وكلما رمى أحدهم بجريدته أسرع عمر فالتقطها قبل أن تصل الى الأرض وأعادها اليه . والفرسان تصوب اليه وترميه بعصيها ، فيتفاداها بمهارته . يدخل تحت الجواد ويدور الى جانبه ويلوى عنانه .. وما انتصف النهار حتى كان قد أصاب جميع الفرسان .. وأخذت الدهشة جميع الحاضرين ، فعلا صياحهم وتهليلهم وراحوا ينظرون اليه بعجب واكبار . وعندئذ ألقى عصا الجريد من يده وتناول رمحه وطلب نزال الفرسان على أن يبرز الجميع اليه فى وقت واحد ..

دهش أبوه .. واختلط فى قلبه الفرح بالخوف عليه ، ولكنه أمر أن تنزل الفرسان جميعا الى ولده اجابة لطلبه .. فصـــاحوا وهجموا عليه من كل مكان ، فقابلهم بعزم ثابت وجنان قوى ، وجعل يطعنهم بسنان رمحه ، وكل من أصابه السنان ينعزل عن الميدان . وما قدر أحد منهم أن يتمكن منه بضربة أو يصل اليه بطعنة ، فقد كان ينحدر الى بطن الجواد ويقفز على ظهره أسرع من البرق ويضيع طعن الرماح فى الهواء ، وعمر يدور حواليه كاللولب ويأتى بحركات تجفل منها خيول الفرسان .

وما انقضى النهار حتى كان قد فرغ من الجميع ، فنزل عن جواده وتقدم من أبيه وقبل يده فأخذه الى صدره وقبله وهو يذرف دموع الفرح ويشكر الله على ما وهب لولده وأقبل عليه فرسان القبيلة يصافحونه ويحيونه ويبدون اعجابهم وسرورهم به .

وكان الثمانمائة الغلام الذين ولدوا فى المدينة يوم ولادته قد تعلموا الحرب والطعن والضرب ، على حسب ما أوصى به آباءهم الوزير بزرجمهر ، وحضروا الميدان مع من حضر فى ذلك اليوم ، وما منهم الا من أحب الأمير حمزة وعقد العزم على أن يكون من فرسانه وتمنى أن يحوز رضاه .

٥ - مصرع الأسد

منذ ذلك اليوم أخذ الأمير حمزة يخرج للصيد والقنص مع أخيه عمر الذى صار كشافا ملازما له . يتوغلان فى الصحراء والأدغال ويأتيان بالوحوش والغزلان . وذات يوم خرج وبين يديه عمر ينطلق كالشهاب ، وبعدا عن الدار وأوغلا فى القفار ، لأن الوحوش جفلت منهما وبعدت والتجأت الى الكهوف والمغاور . واذا هما يريان أســدا رابضا تقدح عيناه كشرار النار .. قال عمر لأخيــه :

— ارجع بنا ولا تقترب من هذا الأسد ، والا هجم علينا وافترسنا فصاح فيه :

— ويلك يا وجه القرد ! أتخاف من هذا الهر .. وتريد أيضا أن تخيفنى منه ! وخفض صوته فى استهانة وهو يقول :

— ما الأسد الا كالأرانب التى أصطادها كل يوم ..

ونزل عن جواده ، وتناول سيفه ، وتقدم الى الأسد .. فلما رآه الأسد مقبلا عليه والسيف بيده لعب به الحنق فوثب واقفا وزأر وكشر عن أنيابه ونفخ بأنفه .. وانقض على الأمير حمزة يريد أن يفترسه ، فتفادى حمزة هجمته ، وأسرع اليه بضربة حسام شقت رأسه الى كتفه ، فوقع على الأرض يتخبط فى دمه . ودنا منه حمزة ، وكان يسمع أن من يأكل قلب الأسد يقوى قلبه ويصير مثل قلبه ، فشقه الى بطنه وأخرج قلبه وجعل يأكل منه ، وعمر ينظر اليه ويتعجب ، ويتقدم يأكل معه ، وحمزة يقول له : كل منه يشتد قلبك .

ولما رجعوا الى المدينة راح عمر يتحدث الى الناس بما كان من حمزة مع الأسد وقتله اياه ، والناس تتعجب منه . ووصل الخبر الى الأمير ابراهيم ، فاستدعى ولده وعمر ، وسألهما عما حدث ، فحكى له عمر كل ما وقع ؛ فتعجب من ذلك ، ولام حمزة وقال له :

— لا تعرض نفسك مرة أخرى لمثل هذا ؛ فقد تلتقى بأسد لا تقدر عليه فتقع فى التهلكة .

فقال له أحد الحاضرين من سادة القوم :

— لا تخف عليه أيها الأمير ، فان الله أعطاه هـذه البسالة والشجاعة لكى يقتل كل طاغ وباغ ، ولو لم يكن الله يريد هلاك هذا الأسد لما بعث اليه بابنك ، ثم ان الله قد وعد بطول عمره وبالفوز على الأعداء ، كما أشار فى قديم الأيام الوزير بزرجمهر .

وقال آخر :

— نعم أيها الأمير ، ان حمزة سيكبح دولة الفرس ويخلص العرب من هذا النير الثقيل الذى حملناه زمانا طويلا .

٦ ـ الخضر الأخضر

جعل الأمير حمزة يخرج الى الصيد ومعه عمر كل يوم ، فخرجا ذات يوم وسلكا طريقا لم يسيرا فيه من قبل ، وأوغلا فيه واشتد الحر وشعرا بالعطش ، فبحثا عن ماء ، فلم يجدا عينا ولا نبعا ولا أى شىء يوجد به ماء .. واشتد العطش بالأمير حمزة فصاح بعمـــر :

— ويلك .. أين نجد الماء الآن ؟ انى أشعر بلهيب النار فى جوفى ، انى هالك لا محالة .. ونقطة ماء تحيينى ..

— سأجيئك بالماء بعد قليل ، اذهب الى تلك الشجرة واستتر بظلها من حر الشمس ، وانتظر الى أن أعود اليك بالماء .

قال عمر ذلك وأطلق ساقيه للريح ، وقصد حمزة الى الشجرة وقبل أن يصل اليها لاح له عن بعد فارس يركب جوادا أبيض كالثلج وتحته قربة من الماء ، فاتجه اليه وفى عزمه أن يأخذ منه شربة ماء طوعا أو كرها ، ولما دنا منه نظر اليه فأخذ بمنظره المهيب .. رأى له لحية بيضاء ناصعة يتدفق منها النور وعليه من الهيبة والوقار والعظمة والجلال مالم يره فى أحد من البشر ، ولكنه برغم ذلك تقدم منه وصاح به :

— انى عطشان ، وأريد شربة ماء ، اما بالرضى واما بالغضب .

أجابه الفارس بهدوء ورقة :

— قف مكانك .. فهذا الماء لك .

فدهش حمزة ، ووقف مكانه لا يتحرك ، وقال :

— يا سيدى من أنت ؟ وكيف عرفت أنى عطشان فجئتنى بالمـــاء ؟

— اعلم أنى أنا الخضر الأخضر .. أبو العباس . أعــرف ما حدث وما يحدث .. تقدم أولا الى هذه القربة فاشرب من مائها العذب اللذيذ ، وبعد أن تروى عطشك أحدثك بحديث ذى شأن جئت لأخبرك به الآن .

نزل حمزة عن جواده وتقدم فشرب من القربة حتى اكتفى ، ورجع خطوة الى الوراء ، ووقف بأدب وقال :

— اصفح عما بدر منى يا سيدى ، وكن ساعدى وعونى عند كل ضيق .

— انى مجيبك باذن الله تعالى على الدوام ، وقد أتيتك الآن لأخبرك بأنك أتت الرجل الذى يرتفع به شأن العرب ويتم به خلاصهم من مظالم الفرس ، لأن لله لا يحب أن تذل هذه الأمة العربية وسوف يعزها ويكرمها ويرفع مقامها فيما يأتى بعد من الأيام لكن فى البداية تكون معينا لكسرى وتخلص بلاده من فارس خيبرى يتسلط عليها .

سكت حمزة وهو مأخوذ بما يسمع ، واستأنف « الخضر » كلامه :

— والآن ارجع الى أبيك واطلب منه أن يسلمك الذين ولدوا يوم ولادتك ، وهم ثمانمائة غلام ، فاجعلهم رجالك الأخصاء ، واعتن بهم ، وعلمهم بنفسك كل فنون الحرب التى تنقصهم ، واذا غزوت قبيلة عاصية أو قابلت ملكا طاغية فانهم يكونون رفاقك ، وقد وجدوا لهذه الغاية .

كان حمزة يسمع وهو مطرق الى الأرض ، فلما فرغ الخضر من كلامه أراد أن يدنو منه ويقبل يده ، ولكنه لم يجد له أثرا غير رائحة البخور التى خلفها وراءه تشرح الصدر وتنعش

النفس .. فبقى واقفا مبهوتا حتى أقبل أخوه عمر يركض حاملا وعاء ماء على عاتقه وقال له :

— خذ واشرب وارو عطشك .

— لا حاجة لى بعد الى الماء ، فان الله أرسل لى ماء عذبا لذيذا من يشرب منه لا يعطش أبدا .

— من أين لك الماء وأنت فى مكانك هذا لم تغادره !

فحكى له ما كان بينه وبين الخضر عليه السلام ، فدهش عمر وقال لحمزة :

— أما وان هذا الغوث وعدك بالخير فانك لا تخشى مكدرا طول حياتك .. فسيكون دائما فى معونتك .

٧ - آمال العرب

دخل حمزة على أبيه فى ديوانه ، وطلب اليه أن يسلمه الثمانمائة الغلام الذين ولدوا يوم ولادته ، وقص على أبيه قصته مع الخضر عليه السلام ، فزاد فرح الأب بابنه وحمد الله على ما أراد للعرب من العزة على يد ولده وردع ملوك الفرس وغيرهم من طغاة الملوك ، ثم دفع اليه الثمانمائة الغلام ، وأخذ حمزة يتم تدريبهم على فنون القتال ، ورأى عمر أن يحذو حذو أخيه حمزة ، فاختار أربعين غلاما من العدائين ذوى النشاط والذكاء وسرعة الحركة ، ودربهم على كشف الطرق والدروب وفنون الخداع والحيل فى الحروب .

وذات يوم علم أن جماعة من الجنود بعضهم من العـرب وبعضهم من العجم — وصلوا الى ضواحى مكة ، وضربوا خياما ونزلوا بها ، فأرسل أخاه عمر كى يكشف خبرهم ، فانطلق اليهم عمر ، ثم عاد وقال له :

— ان سكان هذه الخيام من العرب والأعجام ، وقد جاءوا حسب العادة لأجل أن يجبوا الأموال لكسرى ، فالعرب من جماعة النعمان بن المنذر ، والأعجام من جنود كسرى أنو شروان .

— سمعت بذلك من قبل ، وانى أعجب كيف يجسر العجم على المجىء الى بلاد العرب والعرب أشد بأسا وأقوى مراسا ، قد اعتادوا الحروب وملاقاة الأهوال . على خلاف العجم أهل البذخ واللهو والزينة .

— اعلم أن العجم كثيرو العدد . وكلهم يجتمعون الى ملك واحد ، ويوحد كلمتهم وصفوفهم ، فلا يغير قوم منهم على قوم ، كما تفعل العرب الذين دأبوا على التفرق والشقاق والحـروب فيما بينهم ، وأكبر ملوكهم — وهو النعمان — منقاد لكسرى متفق معه على دينه .

— وما دين النعمان ملك العرب ؟

— كان من عباد الله ولا يزال ، ولكنه يجارى الفرس فيكرم النار ويقدم لها مزيد الاعتبار .

لعب الغيظ والغضب بحمزة ، فنهض وقال :

— لابد من الهجوم على هؤلاء الجنود فى خيامهم وتأديبهم حتى لا يعودوا مرة ثانية ، ولابد من منع كسرى والنعمان من أخـذ أموال العرب ، واذا غاظهما ذلك سرت اليهما وقتلتهما ولا أخشى بأس احد .

وما يشعر الجنود المقيمون فى الخيام خارج مكة الا وقد أحاط بهم حمزة ورجاله ،وأوقع فيهم السيف ، فاضطربوا ، ورأوا من شدة بأس المهاجمين ما أفزعهم ، فأسرعوا الى خيولهم يريدون الفرار والنجاة ، فمنهم من نجا ومنهم من قتل . وعاد حمزة ورجاله الى مكة بالأسلاب ، وفيها الأموال التى جمعت من قبائل العرب لكسرى .

ولما بلغ الخبر الأمير ابراهيم وكبار قومه غضبوا من فعل حمزة ، لأنهم يحسبون حساب النعمان وكسرى ، ويخشون أن يبعثا اليهم بجيش كبير يخضعهم وينتقم منهم . واستدعى الأمير ابراهيم ولده وقال له :

— لقد جلبت لنا شرا عظيما ، وأرى أن أبعثك الى النعمان تعتذر اليه وترجع له أموال كسرى والمال الذى ندفعه اليهم ، وتظهر له أنكم ما عرفتم قومه .

— انى أعجب منك يا أبى .. كيف يضعف قلبك ويتسلط عليك الخوف ! أتدفع الجزية وعندك رجال وأبطال وابنك حمزة لا يخاف أحدا فى هذه الدنيا ؟ اعلم يا أبى انى لن اكتفى بما فعلت ، فلابد من المسير الى الملك النعمان وأرى كيف يخضع لملك العجم وهو عربى ومن الواجب عليه أن يكون مع العرب ويجمعهم كلهم ضد العجم ويمنع أبناء جنسه من الذل ودفع الجزية لقوم يعبدون النار ؛ وبعد أن أفرغ من النعمان أسير الى المدائن وأهدم الايوان على رأس كسرى أنو شروان وأضرب معابد النيران .

فقال له أبوه يحاول أن يثنيه عن عزمه :

— يا ولدى انك تتكلم عن أمور لا تعرفها ، أتظن النعمان قليل الأنصار والأعوان ؟ ألا تعلم أنه ملك ملوك العرب وصاحب الراية الكبرى بينهم ؟ أولا تعلم من هو كسرى أنو شروان ؟ أتظنه من بعض رؤساء القبائل الذين ليس عندهم من الرجال الا خمسمائة أو ألف رجل على الأكثر ؟ تنبه الى نفسك واعلم أن كسرى أكبر ملوك هذا الزمان ، يملك ما لا يعلمه غير الله من ملايين العساكر ، فمن نحن ومن منــا يذكر لدى ذكر الملك كسرى ؟ ان التبصر بالعواقب وتدبر الأمر قبل الوقوع فى المهالك أفضل لنا وخير من أن تقع فى الشدائد وعظائم الأمور .

قال حمزة مصرا :

— اننى لن أندم على ما فعلته ، ولن أرجع عما اعتزمته .

فلما رأى سادة مكة اصرار حمزة ورأوا غيظ أبيه منه وخوفه عليه وخشيته من عواقب فعله قالوا له :

— اعلم أيها الأمير أن ابنك هو من رجال كسرى ، وكذلك الذين معه ، فاذا سئلت عما يحدث منهم فقل لا علم لى بهذا وان هؤلاء ينتمون اليكم ، ولا ريب أن كسرى سيتسامح مع حمزة لعلمه أنه بحاجة اليه كما أخبره بزرجمهر ، فدع الأمر يمضى كما أراد الله ، عسى أن يكون فيه خير العرب وتحقيق آمالهم .

٨ - الأصفران

خرج حمزة من مكة ومعه رجاله الفرسان الثمانمائة ؛ وكلهم شباب من سنه ، وبين يديه عمر الكشاف كأنه عفريت من عفاريت سليمان ينطلق كالسهم ، ويغيب عن الأبصار ، ويعود أسرع من هبوب الريح .

وعندما كان الأمير حمزة ورجاله على مسافة من « الحيرة » مقر الملك النعمان أوغل هو وعمر فى طريق ضيق ، وسبقا بقية الفرسان ، فشاهدا — على بعد — أربعة أشخاص من العجم حفاة عراة موثوقين بالحبال فسألهم حمزة عن حالهم ، فبكوا وطلبوا منه الأمان ، وقالوا :



— كفانا ما نحن فيه من العذاب ، فليس معنا ما يمسك رمقنا ، ونحن الآن نموت جوعا ، فاتركنا تتدبر حالنا .

فقال لهم الأمير حمزة :

— لا تخافوا ، فانى لا أقصد ايذاءكم ، ولست ممن يضر بالناس أو ينزع منهم ما يملكون ، ولا سيما أنى أراكم على حالة تستحق الشفقة والرأفة ، فأخبرونى بأمركم ، ومن الذى فعل بكم هذا لأنتقم لكم منه وأجازيه على فعله .

وأمر أخاه عمر أن يفك وثاقهم ويطعمهم ، وبعد أن أكلوا واستراحوا تقدم واحد منهم الى حمزة ليشرح له حالهم :

— اعلم أيها السيد المعظم أننا من قوم كسرى أنوشروان ، وأننا نشتغل بالتجارة ، نحمل البضائع من بلاد الى بلاد ، وقد ذهبنا ببضائعنا هذه المرة الى بلاد اليمن ، فبعناها كلها وربحنا فيها أرباحا عظيمة ، ثم عدنا قاصدين الى بلادنا ، وأردنا أن نمر بالحيرة لنستريح فيها ، ولكن ما وصلنا الى هذه الجهة حتى خرج علينا فارس طويل القامة عريض الأكتاف واسع الصدر مدجج بالسلاح الى قمة رأسه ، ومن خلفه أربعون فارسا كلهم مسلحون . وتقدم كبيرهم هذا وسألنا ، فأردنا أن نوهمه بأننا أقوياء عساه يتجنبنا ، فقلنا له :

— اننا من رجال كسرى أنو شروان نطوف بالبلاد والعواصم فتكرمنا الملوك من أجله وترسل له معنا الأموال ، وما معنا الآن هو من أموال نحملها اليه .

فما كان منه الا أن نزع منا كل ما معنا وأوثقنا بالحبال ، وقال ساخرا متحديا :

— اذهبوا الى ملككم وأخبروه بما جرى لكم وقولوا له ان الذى فعل بنا هذا هو « أصفران الدربندى » صاحب الحصن ، واسألوه هل يستطيع أن يخلص أمواله من يدى ، وان شاء فليبعث بكل جنوده ورجاله لأجعلهم غنيمة لى وأريه ما تفعل بهم .

فقال الأمير حمزة للأعجام الأربعة :

— سيروا أمامى فى أمان وسلام ، ودلونى على « أصفران » هذا ، لأنتقم لكم منه وأعيد اليكم أموالكم وأزيد عليها من ماله .

وساروا ، حتى دنوا من قلعة « الدربندى » فقال الأعجام لحمزة :

— هذه القلعة هى مقره ، وهو لابد سيخرج اليكم ، ونحن لا نقدر عـلى الظهور أمامه حتى لا يهلكنا ، سنختفى فى مكان لا يرانا فيه ، حتى اذا انتصرت عليه ظهرنا ، والا رجعنا من حيث أتينـا .

فعذرهم الأمير حمزة ، لأنه يعرف أن الجبن يفعل بأهله أكثر من ذلك ، وتركهم فى مكانهم ، وتقدم هو الى الأمام ، وعمر يقول له :

— اصبر حتى يصل رجالنا ، فليس من الصواب أن نقاتل وحيدين .

— ويلك .. أتظننى أنتظر مساعدة أحد فى أمر أريده ؟ سوف ترى ما يكون منى ومن أصفران الدربندى هذا وقومه ..

٩ - نبوءة

كان أصفران الدربندى من أبطال ذلك الزمان ، وقد اتخذ تلك القلعة حصنا له ، ومعه أربعون صاحبا من الفرسان المعدودين ، يركبون لركوبه ، ويسيرون طوع أمره أينما سار . وقد قطع الطريق ؛ فلم يدع قافلة الا سلبها ما تحمل ؛ ولا فرقة من العساكر الا أنزل بها الويل والهلاك . فانتشر صيته فى تلك الجهات ، وخافه أصحاب التجارة فتهيبوا المرور فى ناحيته خوفا عـلى أموالهم وأرواحهم . وقد رفعت شكاو كثيرة بشأنه الى كسرى والنعمان ؛ فبعثا اليه بالعساكر لاخضاعه ومنع آذاه وعدوانه على أبنـاء السبيل ، فكان يهزمهم ويبددهم بقوة بأسه . واستمر على ذلك حتى جمع أموالا كثيرة وصار كالملوك والأمراء .

كان أصفران جالسا فى قلعته بين أصحابه مسرورا بما وصل اليه من سطوة وغنى ، واذا هو يسمع صوتا يناديه من أسفل القلعة ، فأطل من الشباك ونظر الى صاحب النداء ، فوجده شابا أمرد ، فرمقه باحتقار واستنكار وقال له :

— ماذا تريد ! ومن تطلب ؟ وما معك ؟

ليس معى الا هذا السيف الذى أعددته لقطع رأسك ونزع روحك واراحة الناس منك .

— من أنت حتى تتفوه بهذا الكلام !

— لن أقول لك من أنا الآن فانزل حالا ولا تطل الكلام .

أراد أصفران أن يملك نفسه ويرسل الى حمزة أحد أصحابه استصغارا لشأنه ، ولكن الغيظ من كلام حمزة لعب برأسه وجعله يسرع بركوب جواده والنزول اليه .. دنا منه ونظر اليه نظرة الفاحص ، فرأى دليل الشجاعة على وجهه ، فقال له :

— لماذا أتيت الى أيها الغلام ؟ أخبرنى الخبر الصحيح قبل أن أفقدك الحياة ، عساى أشفق عليك وأعفو عنك ، وأكتفى بأخذ جوادك وما معك .

— أتيت منتصرا للأعجـام الذين سلبتهم أموالهم وثيابهم وتركتهم جياعا موثقين بالحبال .

— وما شأنك بذلك أيها الصغير ؟

— لا تغتر بكبر جسمك ورأسك ، ولن تنجو منى الا اذا وعدتنى بالامتناع عن الاعتداء على عباد الله والرجوع عن هذه المظالم .

استبد الغضب بالدربندى ، فاستل الحسام وانقض على حمزة انقضاض آساد الآجام ، وقابل الأمير حمزة الحسام بالحسام ، وأخذ معه فى العراك والصدام ، ما بين افتراق والتحام ، وهما يصيحان بأصوات الرعود ، ويزأران زئير الأسود .

وبينما هما على ذلك وصل رجال حمزة الى ميدان القتال ، وشاهدوا أميرهم على هذا الحال ، فوقفوا ينتظرون ما يكون من أمرهما ، وكذلك وقف رجال أصفران الأربعون .

وظل القتال متصلا بين حمزة وأصفران ، والطعن بينهما متبادلا بخفة واتقان ، وهما يجولان فى ساحة الميدان . وبينما هما على ذلك أسرع الأصفران الى الأمير حمزة بطعنة ظن أنها لابد ستصيبه ، ولكن حمزة غطس تحت بطن الجواد ، فضاعت الطعنة فى الهواء ، ثم اعتدل على ظهر جواده ، وصاح بصوت كالصاعقة ، اهتز منه الأصفران ، وضعفت قوته ، وأراد أن يشهر سيفه فلم تطعه يده ؛ نظر الأمير حمزة الى ما حل به من الضعف وما وقع فيه من

الكرب ، فقرب منه ومد يده فانتشله من ظهر جواده ، وألقاه الى أخيه عمر ، وقال له :

— شد وثاقه حتى أبدد رفاقه .

فصاح به الأصفران :

— العفو يا أمير حمزة البهلوان . فانى رفيقك على طول الزمان أخدم ركابك أين سرت وفى أى مكان ..

بهت الأمير حمزة لذكر اسمه ، وقال له :

— كيف عرفت أنى حمزة وأنا لم أذكر أمامك اسمى ؟

— لذلك قصة حدثت لى منذ سنوات .

— وما هى هذه القصة ؟

قال أصفران :

— اعلم يا سيدى أنى أردت ذات يوم التوغل فى البرارى والقفار ، فمررت فى سيرى بكهف فى حضن الجبل ، فنزلت لأستظل فيه من حرارة الشمس ، ودخلت فرأيت فى الكهف رجلا معتكفا به قد طال شعره وابيض ، فأخذتنى هيبته ، وتقدمت للسلام عليه ، كان وجهه يطفح بالنور ، فلم يسعنى الا الخشوع أمامه على الرغم منى . وعندما رآنى قال لى :

— أدخل يا أصفران .. فانى موعود بأنك تأتى الى وتوارى

جسمى فى التراب ، لأن يومى قد جاء ؛ ولم يبق فىالعمر مطمع ؛ وأنى مشتاق الى ملاقاة وجه ربى ؛ وعما قليل ينتهى كل شىء .

فزادت حيرتى منه واجلالى لشأنه ؛ وقلت له :

— كيف عرفتنى ؟ ومن أخبرك بى ؟

— ان ربى أعطانى من سابق المعرفة ما أمكننى أن أعرف به ما لا يعرفه غيرى . وقد عرفت أن الله يدعونى اليه وأن أجلى قد انتهى اليوم ؛ وأن رجلا يدعى أصفران الدربندى سيمر هنا ويشتد عليه الحر فيلتجىء الى هذه المغارة وأنه هو الذى يدفن جثتى .

استراحت نفسى الى كلامه ؛ وقلت له :

— هل لك أن تجيبنى يا سيدى عن سؤال أريد أن أسألك اياه ؟

— ماذا تريد يا ولدى ؟

— لقد نشأت على حب القتال ؛ حتى صرت فارسا معدودا . ومنذ وعيت فى هذه الدنيا وأنا أقاتل وأغير على القبائل ، حتى ألقيت الرعب فى القلوب وهابنى أعاظم الملوك مثل كسرى والنعمان ، ولم يكبحنى أحد قط ، فهل يا ترى يقدر على أحد فيما بعد أو يوجد فى زمانى من يستطيع الثبات أمامى فى القتال ؟

— لا تغتر بنفسك يا ولدى ، انى أخبرك خبرا مؤكدا . لقد ولد منذ أعوام غلام سعيد فى مكة المطهرة اسمه حمزة ابن الأمير ابراهيم ، وهو الذى يقدر عليك ويذلك ، ثم تكون من أتباعه ، ويكون لك معه وفى خدمته الشرف الأكبر . واعلم يا ولدى أنه هو الذى يخلص العرب ويمتلك المدن والبلدان ، وينتشر صيته من مكان الى مكان ، وتهابه جبابرة الزمان ، فعندما تلتقى به أقرئه منى السلام ، واياك أن تكابر فى قتاله أو تحدثك نفسك بالطمع فيه .

وما انتهى من كلامه حتى فارقت روحه جسده . فدفنته . ومنذ ذلك اليوم وأنا أفكر فى الرجل الذى أخبرنى به ، وهو أنت ، وقد سألتك عن اسمك فلم تخبرنى ، ولو أخبرتنى به لسلمت لك من أول الأمر ورميت عليك سلام رجل الله .

تعجب الأمير حمزة من هذا الكلام غاية العجب ، وأطرق برهة يفكر ، ثم رفع رأسه وأمر عمر أن يترك أسره . وقال له :

— يا أصفران ، لقد دخلت منذ هذه الساعة فى رفقتى وصرت من رجالى ، وانى أريد منك الآن قبل كل شىء أن ترجع أموال الأعجام اليهم .

— ألا تعرف يا سيدى ان الأعجام من أعداء العرب وأنهم

يسلبون أموالهم ، وأنهم من عبدة النار لا يعرفون عبادة الله ، فكيف نرجع الأموال بعد أن عادت الينا ؟

— ان الذى يأخذ أموال العرب هو كسرى ، وهؤلاء لا ذنب لهم ، وقد وعدتهم باعادة أموالهم اليهم .

— ان الأموال جميعها داخل القلعة ، وهى رهن أمرك . وانه يسرنى أن تنزل فى ضيافتى بالقلعة ثلاثة أيام ، وسأسلمك وديعة أعطاها لى الرجل المهاب فى الكهف لأسلمك اياها ، وهى ستة معاضيد من الذهب ، واحدة لك . وخمسة لخمسة أولاد يولدون لك . تسلم لهم حين ظهورهم .

— وما نفع هذه المعاضيد وما هو القصد منها ؟

— ان القصد منها — حسب ما أخبرنى الرجل — أن لابسها يحفظ من الشر والغدر ويشتد ساعده حتى اذا أمسك قطعة من الحديد وشد عليها ذابت بين أصابعه .

أقام الأمير حمزة ثلاثة أيام فى تلك القلعة ، وتسلم المعاضيد مندهشا لما رأى عليها من الكلمات المكتوبة ولم يتبين منها الا اسم الله ، وفى اليوم الرابع شرع فى الرحيل الى الحيرة ، وساروا جميعا ومعهم أصفران ، وظلوا سائرين عدة أيام حتى قربوا من بلاد النعمان ودخلوا على حدود أراضيه .

١٠- النعمان

كان النعمان قد بلغته أنباء حمزة وما فعله برجاله ورجال كسرى ، فغضب وأراد أن يجمع العساكر ويبعثها الى مكة ، ولكن وزيره أشار عليه قائلا :

— ان من الصواب أن تعلم كسرى بما حدث ، وتدع رجاله المنهزمين يسيرون اليه ويخبرونه بما كان من حمزة ، لأنك ان سرت أنت الى مكة أثرت فتنة فى العرب لا تنقضى الا بهلاكهم ، فالعرب لا تتخلى عن مكة ولابد أن تدافع عنها . هذا الى أن حمزة يعد فى الحقيقة من رجال كسرى ولا يغيب عنك ما جاء به وزير الفرس « بزرجمهر » منذ سنين ومسيره الى بيت الله الحرام لأجل

هذا الغلام وما تنبأ به من أنه سيكون له فى زمانه شأن عجيب ..

قال النعمان لوزيره :

— لقد أصبت فلنبعث بكتاب الى الملك كسرى نشرح له فيه واقع الحال ، وننتظر حتى يصدر أمره بما يريد .

وبينما كان النعمان فى انتظار أوامر كسرى اذ فوجىء بقدوم الأمير حمزة الى بلاده ، فاضطرب لما سمعه عنه .. وجمع كبار قومه ليستشيرهم فى الأمر ، فأشار بعضهم بالانتظار حتى تصل أخبار كسرى ، ورأى آخرون أنه لابد من الدفاع والخروج لملاقاة حمزة ورجاله .

وعندما وصل الأمير حمزة كان جيش النعمان فى انتظاره ، وحلت الندامة ، وقلت السلامة ، وبرز الأمير حمزة الى النعمان والتقى الجمعان ، واشتدت الحـرب والطعان ، وقامت القيامة ، وحاول النعمان الهرب ، ولكن حمزة انقض عليه ولم يمكنه من الفرار وأخذه أسيرا ، وأسلمه الى أخيه عمر ، وتفرقت عساكر النعمان فى كل جهة ومكان .

دخل حمزة الى مدينة « الحيرة » وجلس فى ديوان النعمان وجمع قومه ، وأمر أن يؤتى بالنعمان بين يديه ، فأتى به ذليلا ، وقال له حمزة :

— لقد بلغني أن آباءك وأجدادك كانوا يعبدون الله ويكرمون مكة المطهرة ويأتون اليها كل عام ؛ ولكنك رجعت عما كان عليه أسلافك وانحزت الى كسرى ، ورحت تساعده على اذلال العرب وأخذ أموالهم ، وهذا يكفى لقطع رقبتك .. عند ذلك فزع النعمان فقال متضرعا :

— انني عربى الأصل من جنسك ؛ وصديق لوالدك الأمير ابراهيم ، فأرجو أن تطلقني وتتخذني نصيرا ومعينا .

— لقد ملت الى دين كسرى وعبدت النار مثله ، فكيف أتخذك معينا لى وأنت لا تعبد الله ؟

— ما فعلت ذلك الا كرها واجابة لطلب كسرى ، وأنا فى الحقيقة على دين آبائى ؛ ولكنى أخشى كسرى أنوشروان .

— ان كان كسرى يعترض على أحد من العرب فانى أسير اليه وأخرب دياره وأقلب الايوان على رأسه .

— انى أعدك يا حمزة من هذه الساعة أن أعود الى عبادة الله ، وأكون لك ولسائر العرب من المخلصين .

فلما سمع الأمير حمزة كلامه تأثر به ؛ فنهض اليه بنفسه وفك وثاقه ، وسأله أن يجلس على كرسيه وهما يتصافحان . وفرح عرب النعمان برجوع مليكهم الى عبادة الله والصلح مع حمزة ؛

اذ لم تكن ضمائرهم مستريحة الى عبادة النيران ولا الى ولائهم لدولة العجم .

أقام حمزة ورجاله فى ضيافة النعمان وعرب الحيرة خمسة عشر يوما قضوها فى لهو واحتفالات وأفراح ، وفى اليوم السادس عشر قال حمزة للنعمان :

— انى أريد أن أذهب الى المدائن وأنظر حالة كسرى أنوشروان ، فان كان على الوفاق معنا سالمناه ، وان كان يخاصمنا حاربناه وأنزلنا به الويل والعبر .

— لا أشير عليك الآن بالمسير الى بلاد العجم ، لأن كسرى كثير الجند والأعوان ، وبلاده واسعة جدا لا يكاد ملك من ملوك العالم يعادله فى المال والرجال ؛ فاذا سرنا اليه لا نضمن النجاح ، والرأى عندى أن تعود الآن الى بلادك ، حتى يرسل اليك كسرى يستنجدك .

— يستنجدنى فى أى شىء ؟

— ألا تذكر الحلم الذى رآه من نحو عشرين سنة وفسره له وزيره بزرجمهر بأن عدوا يخرج عليه من حصن خيبر ويملك المدائن فتطرد له هذا العدو وتعيد اليه بلاده ؟

— سرح فكر حمزة قليلا ، ثم قال :

— آه .. تذكرت .

— وعندما تذهب اليه اجابة لدعوته وبناء على حاجته اليك يكون لك الاعتبار وعظيم المقام عنده .

— لقد أصبت بذلك ، ولابد لى من الاقامة فى مكة حتى يؤون الأوان .

١١ـ عدو العرب

وبعد أن رحل حمزة ورجاله فكر النعمان فى موقفه من كسرى أنوشروان ، وخشى أن يعلم بصلحه مع حمزة الذى اعتدى على رجاله وطردهم من مشارف مكة وسلب منهم أمواله ، ثم استقر رأيه على أن يذهب الى المدائن ويرى ما هناك من الأخبار .

وصل النعمان الى المدائن وانتظر أياما حتى أذن له بمقابلة الملك . وقف بين يدى كسرى وأظهر خضوعه وطاعته ، فأذن له بالجلوس ، وقال له :

— اعرض حاجتك يا نعمان وقل ما السبب الذى دعاك الى المجىء الى دون أن أستدعيك .

— اعلم أيها الملك الأعظم أن فارسا من مكة قد خرج عليَّ وجاء بلادى وقتل رجالى ونهب أموالى .

اضطرب كسرى من هذا الخبر وتكدر غاية الكدر ، وقال :

— ما اسم هذا الفارس ؟

— حمزة بن الأمير ابراهيم .

— لابد من قتله وخراب مكة .

وكان كسرى قد غاب عن ذهنه ما كان من نحو عشرين سنة من أمر الحلم .

وقال الوزير بزرجمهر :

— هناك أمر آخر يا سيدى الملك ؛ فقد جاء رجالك الذين كانوا مع رجال النعمان ، وأخبروا أن حمزة قتل منهم جانبا وسلبهم الأموال وأعادهم خاسرين ، وقد كتمت عنك هذا الخبر ..

لم يدع كسرى وزيره حتى يتم كلامه ، بل قال غاضبا :

— ولماذا لم تطلعنى عليه فى وقته لأبعث من يأتينى بهذا الكلب العربى لأقتله على باب المدائن .. ؟

— أخفيت عنك ذلك لما ثبت عندى من أن هذا الفارس هو من رجال الملك كسرى ومن أقرب الناس اليه وأحبهم عنده .

— ما معنى هذا الكلام وأية علاقة بينى وبين أجلاف العرب ؟ من هو هذا الذى تزعم أنه من أعز الناس عندى ؟ .

— انه — يا سيدى — الأسد الذى رأيته فى حلمك منذ زمان طويل وبعثتنى لأجله الى مكة لأكتبه من قومك . وقد بلغنى أيضا أنه صنع معروفا مع جماعة من تجار الفرس ؛ وكان أصفران الدربندى سلبهم أموالهم ، فخلصها لهم بعد أن تغلب على أصفران وجعله من رجاله .

فلما سمع كسرى ذلك صفق من الفرح وقال :

— أهذا هو الذى أخبرتنى عنه أنه يخلص ملكى من عدوى الذى يخرج على بلادى ؟

— نعم هو يا سيدى

— وكان الوزير « بختك بن قرقيش » الذى يكره العرب يصغى الى ذلك بكدر وامتعاض . فقال لكسرى :

— لقد نسيت يا سيدى حالة العرب وما هم عليه من الهمجية وعدم الأمانة ، فاذا أكرمتهم لا تأمن جانبهم .

اغتاظ كسرى من وزيره « ابن قرقيش » ولكنه صبر عليه لعلمه أن هذا هو رأى بعض الفارسيين فى العرب ؛ فلم يعبأ بكلامه ولم يهتم بأن يرد عليه .

وكذلك اغتاظ النعمان من الوزير بختك ، وخرج من الديوان وهو يسأل الله فى نفسه أن يكون خلاص العرب من العجم فى وقت قريب على يد الأمير حمزة .

١٢ - سقوط المدائن

بلغ الملك كسرى أن « خارتين » صاحب حصن خيبر قد خرج بجنوده ، وعددهم أربعمائة ألف من الفرسان المنتخبين ، ودخل حدود البلاد وهو ينهب ويقتل ، وأنه يتجه الى المدائن ليستولى عليها وينتزع الملك من كسرى . فاهتم لذلك غاية الاهتمام وأمر أن تجمع الجيوش الكسروية للدفاع ، وعهد بتدبير ذلك الى وزيره بختك . وبعد أن أعدت العدة قال بختك لكسرى :

— لقد نفذنا أمرك ، واجتمع لدينا نحو تسعمائة ألف فارس من الأبطال ، وهم أكثر من جيش خارتين بكثير .

— اذهب بهم الى خارتين وحاربه على بعد من المدائن قبل أن يصل الينا .

— ليس من الصواب يا سيدى أن نلاقيه عن بعد من هـذه المدينة ، بل أرى أن يبقى الجنود خارج المدينة وعلى أبوابها ، حتى اذا وصل دافعنا عنها وأرجعناه بالخيبة .

استحسن كسرى هذا الرأى فوافق عليه ، ووقف الجيش يستعد للدفاع .

أما خارتين فانه ظل يزحف الى المدائن ، ووصل اليها بعد أن امتلك كل ما فى طريقه من البلاد الفارسية وأقامت عساكره الخيام خارج المدينة ، فلما كان صباح اليوم التالى ركب خارتين فوق جواد عال كأنه الجمل فى الارتفاع ، وعلى عاتقه عمد من الحديد ، وتقدم فرسانه ، وتبينه رجال الفرس .. فاذا هو بشع المنظر كبير الرأس أصلع ، وعيناه مستديرتان فى وجه كبير مجعد ، ينزل شعر رأسه الى كتفيه والى حدبة تعلو رقبته وتجعل قامته معوجة .

أمر بختك بن قرقيش عساكر الفرس بالتقدم لملاقاة خارتين ومن معه ، وتبادل الفريقان هجوم الآساد ، واشتعلت فيما بينهما نيران الحرب والطراد ، واهتزت من ركض خيولهما الآكام والوهاد . وكان خارتين يبدد الرجال ، ويصرع الأبطال على وجه الرمال ، وراحت فرسانه تتقـدم ، وفرسان الفرس تتأخر ، واستمرت الأهوال الى أن جاء الزوال ، ودقت طبول الانفصال ، فرجع الفريقان الى الخيام على أشد حال من التعب والملال ، لا يصدق أحد منهم أنه سيرجع الى أهله بسلام .

دخل الوزير بختك على الملك كسرى وأخبره بما جرى ، فقال كسرى :

— انى أخاف أن ينهزم جنودنا فى هذه المرة ويلحق بنا الويل والدمار ، وقد كنت أريد أن أرسل الى الملك النعمان وأستدعى جماعة العربان لمساعدتنا فى القتال فمنعتنى ووعدتنى بالنصر .

— كن يا سيدى مطمئنا ، فان جيوشنا كثيرة ، ولابد أن يكون الفوز لنا ، ولا حاجة لمجىء العرب ، لأنهم اذا حضروا معنا حربا وانتصرنا فيها ينسبون النصر اليهم ، ولا أحب أن يتفاخروا علينا ، بل يجب أن يبقوا على الذل والطاعة ..

ولكن الوزير بزرجمهر لم يعجبه كلام بختك ، وعرف أنه لابد من هزيمة الجيش أمام خارتين صاحب الحصن ، ولابد من مساعدة العرب ، ولاسيما الأمير حمزة ، فهو وحده القادر على ملاقاة خارتين وقتله . وأيقن بزرجمهر أن هـــذه هى الفرصة لاتصال حمزة بكسرى .

قال بزرجمهر :

ــ ان امتناعنا عن دعوة العرب للقتال معنا ليس من الصواب ، فهم من عمالنا وأتباعنا ، يساعدونا كما نحميهم ونرعاهم ، غير أن الوقت قد فات ، فالأوفق أن ننظر فى موقف رجالنا كيف تنجو عساكرنا من قبضة خارتين .

فقال بختك :

ــ ان أمر القتال منوط بى ومفروض على ، فلا يمكن أن نتأخر وسننتصر ببركة النيران وعنايتها ، وعدد عساكرنا يفوق عساكر خيبر ، ونحن نستطيع زيادتها وامدادها على خلاف الأعداء .

سكت كسرى ينتظر ما يكون من أمر جيشه مع الخيبريين .

وجعل خارتين يتقدم الى الأمام ، وجنود كسرى يتأخرون ، وأيقن كسرى أن العدو لابد داخل الى مدينته ، فطلب من وزيره بزرجمهر أن يدبر له أمر الخلاص . فقال بزرجمهر :

ــ ما من وسيلة لنجاتنا من هذا الطاغى ... وأرى من الصواب أن نبعث بأولادنا وكل ما يتعلق بنا الى مدينة طهران ، ثم نلحق بهم ، وهناك ننظر فى أمر خلاصنا .

كيف تترك المدائن للخيبريين يتملكونها وندع خارتين يجلس على عرشى ويدعو نفسه بكسرى .. ؟ !

ــ ان ذلك سيكون مؤقتا فسوف نعود اليها ، وسوف ترى بعينيك ما يكون من أمر العرب حين يتم لنا النصر على أيديهم .

سلمت المدينة الى خارتين ، فجلس فى الايوان ، وأصدر أمره الى رجاله وأتباعه ألا يدعوه منذ اليوم الا بالملك كسرى .. ملك العجم والعرب والديلم وسيد ملوك الزمان .

١٣ - الشرف العربي

لما استقر كسرى أنو شروان بمدينة طهران جمع وزيريه لينظر معهما في أمر خلاص بلادهم من خارتين صاحب حصن خيبر ، قال الوزير بختك :

— تذكرت الآن كلاما كنت قد سمعته وترددت فى صحته وأيدت الحوادث ماذهبت اليه .

فقال كسرى :

— وما هو هذا الكلام ؟

— ما قاله الوزير بزرجمهر من أن رجلا من العرب يخلص بلادنا من الأعداء ويساعدك عند وقوع الاهوال ، وقد ظهر الآن أنه لم يصب فى قوله وأن مازعمه لم يقع .

— صدقت ، مع أنى سمعت بهذا الرجل العربى من الملك النعمان . ثم التفت كسرى الى بزرجمهر الذى كان صامتا يصغى ، فقال :

— أى وزيرى بزرجمهر ، أين ذلك الذى حدثتنا عنه فيما مضى ؟ فقد احتجنا الى مساعدته ولم يأت لمساعدتنا مع أننا بعثنا الى أبيه بالأموال وربيناه على حسابنا ؟

قال بزرجمهر :

— انى ما نطقت الا بالصواب وما قلت غير الحقيقة ، ان الأمير حمزة هو الآن فى مكة بلد أبيه وأجداده ولا يعلم ما جرى لنا ، وهو ينتظر اشارة منا ليأتى ويخلص البلاد .

فقال كسرى :

— حقا نحن الذين أهملنا فى حق أنفسنا ولم نرسل اليه حتى الآن وأرى أن تذهب على الفور الى بلاد العرب وتجمع الجيوش منها وتأتى بذلك الفارس .

سافر بزرجمهر الى مكة ، واستقبله أميرها ابراهيم وولده حمزة مرحبين ..

وقال بزرجمهر :

— اعلم يا حمزة العرب أنى جئت اليك بدعوة كسرى

أنوشروان الى أن تذهب اليه وتخلص بلاده من خارتين صاحب حصن خيبر .

وقص الوزير على حمزة ما كان من أمر خارتين وكسرى ، فلعبت النخوة العربية برأس حمزة وقال :

— وحق البيت والصفا لابد من السير الى هذا الخيبرى وذبحه ذبح الأغنام وتشتيت عساكره ولو كانوا فى عدد الرمال .

وتأهب حمزة للرحيل وأمر رجاله أن يستعدوا ، وهو يكاد يطير فرحا وشوقا الى خوض المعركة ، ويقول فى نفسه : لابد أن أرى الفرس شجاعة العرب وأحملهم على الاعتراف بأنهم أشد منهم بأسا وأعلى مقاما ، وسأكون عند حسن ظن كسرى بى ، لو لم يكن كسرى يحبنى ويثق بى لما أرسل الى أكبر رجل فى مملكته يستنجدنى .

وركب حمزة وركب معه أخوه عمر وأصفران الدربنــدى والفرسان الثمانمائة وعلى رأسهم عقيل قائدهم . وراح الكشاف عمر يلعب أمامهم ألعابه العجيبة .. حمل كنانته وسهامه ولف على وسطه حزاما عريضا من الجلد ملأه بالخناجر . وشد على رجليه قماطا من الجلد الأحمر حتى ساقيه ، ووضع على رأسه خوذة من الفولاذ مستديرة وربطها بسلسلة رقيقة من النحاس الى تحت

ذقنه .. انطلق بأسرع من لمح البصر فغاب عن الأنظار ، ثم ظهر كما يظهر لمعان البرق ، ثم اختفى فى طرفة عين .. حتى تعجب الوزير منه وكاد لا يصدق أنه من الانس ، وتذكر عمل أبيه وكيف ضرب أمه لتلده فى ذلك اليوم الذى ولد فيه حمزة طمعا فى المال ..

وودع الأمير ابراهيم ولده حمزة وهو يوصيه بمراعاة الشرف العربى وناموس القبائل العربية . ووصل حمــزة بجيشه الى الحيرة ، ومعه بزرجمهر ، واستقبلهم النعمان ، وأضافهم ثلاثة أيام كعادة العرب . وعند استئناف السير الى فارس طلب منهم الوزير بزرجمهر أن يتجهوا معه الى طهران حيث يجتمعون بالملك كسرى وتنضم اليهم جنوده لمحاربة خارتين وانقاذ المدائن ، فقال له حمزة :

— وأى فضل يكون للعرب اذا قاتلت مع العجم ؟ اذا فزنا نسبوا الفوز الى أنفسهم وتكبروا علينا كعادتهم .. انى أريد أن أذهب الى خارتين بجماعتى الذين جئت بهم من مكة فقط ، واننا بمعونة الله تعالى نقدر على خارتين وقومه وابادتهم .

— لا تسلك هــذا السبيل يا ولدى ، ان خارتين فارس صنديد ، ومعه من أبطال خيبر أربعمائة ألف فارس ، وقد تغلب

بهم على جيوش كسرى وهى تضم تسمائة ألف نفس ، فأرى من الصواب أن تسيروا الى كسرى وتقاتلوا معا ولا تضيعوا الفرصة .

— أقسم بالله العظيم ، رب زمزم والحطيم ، انى لا أقاتل مع العجم ؛ ولا أحب أن يضيع مجهود العرب مع تكبر الفرس وتعاظمهم .

ابتسم الوزير ، وقال لحمزة :

— صدقت يا ولدى . وانك لقادر على ما تقول ؛ غير أنى أريد أن تصحب معك الملك النعمان برجاله ، ولا بأس عليك فى ذلك ؛ اذ تكون القائد والجميع تحت امرتك ، افعل هذا من أجل خاطرى .

— أفعل هذا لا لكونى محتاجا اليه ، ولكن لأثبت أن العرب أهل شجاعة ونجدة ولأكسب لهم فضل التقدم على غيرهم ممن يتعاظمون عليهم ، ولأرفع الناموس العربى القائم على الشرف وأمنع عبدة النار من الاختلاط بعبدة الله .

قال بزرجمهر فى نفسه : الحق معه ، ومن كان مثله فلا خوف عليه لأنه يعبد الله ويطيعه ومن يحب الله لا يتركه ولا يتخلى عنه .

١٤ـ حمزة في الميدان

ركب الأمير حمزة فى مقدمة نحو خمسين ألف فارس من العرب ، والى جانبه الملك النعمان والى الجانب الآخر أصفران الدربندى ، واتجهوا الى المدائن . وراح حمزة يتخيل ما سيكون له من المنزلة عند كسرى ، وما أعطاه الله من الشجاعة التى فاق بها أقرانه وأهل زمانه ، ثم رفع صوته وهو يترنم بهذه الأبيات :

سوف تلقى منى العداة وبالا   وترى فى حربى أمورا ثقالا

وأبيد الطغاة بالسيف قسرا   وبرمح يقصر الآجالا

فأخوض الوغى بسيف صقيل   وأسر العفاة أنسا ومالا

وأعجب الملك النعمان بفصاحته ، كما أعجب من قبل بشجاعته .

وأشرف الجيش العربى على المدائن ، فأشار النعمان بالنزول واقامة الخيام فى مكان قريب ، وكتب الأمير حمزة الى خارتين يتهدده ويطلب منه الخروج الى ملاقاته والا دخل عليه الايوان وقتله فيه .

دخل عمر الكشاف بكتاب الأمير حمزة على خارتين ، فأخذ منه الكتاب وقرأه فاضطرب ثم أرغى وأزبد ، وقال لعمر :

— من هذا الذى يقال له حمزة .. الذى تجاسر وكتب مثل هذا الكتاب ؟

— ان كنت لا تعرفه فستعرفه اذا اجتمعت به فى ساحة الميدان ، فاكتب اليه الجواب لأنه فى الانتظار .

— انه لا يستحق منى أن أكتب اليه . وسأخرج اليه فى الغد لقتله وقتل النعمان ، وسأقيم من قبلى حاكما على العرب .

وفى الصباح فتحت أبواب المدينة فتدفق منها الجنود أفواجا ، يقيمون خيامهم مقابل خيام العرب وقد داخل الرعب من كثرتها الملك النعمان ومن معه ، أما الأمير حمزة فقد جمع رجاله الأخصاء وأمرهم أن ينقضوا فى كل مكان ينقض هو فيه ، فيحمون ظهره ويقاتلون كقتاله ، وقال لهم :

— اعلموا أن المعول فى هذه المعمعة عليكم ، والرجاء معلق بكم ، فاذا تأخرتم أنتم تأخر جنود النعمان ، واذا تقدمتم تقدموا واشتدت ظهورهم .

فقال له أصفران الدربندى :

— انى أعلم أننا — وحدنا — نكفى لقتال هؤلاء الخيبريين مهما كثر عددهم ، ولا حاجة بنا الى قوم النعمان ، وسترى بعينيك ما يكون منا ، واذا شئت فاسمح لى أن أقاتل هذا اليوم وحدى برجالى ، لكى يعلم النعمان أن أربعين من رجالك لاقوا أربعمائة وعادوا منصورين .

— انى أعلم أنك تقدر على ما تقول ..

ولم يتم حمـزة كلامه ، فقد رأى جنـود خارتين يصيحون ويهجمون كأنهم السيل عندما تشتد الرياح وسرعان ما قابلهم العرب مثل أسود البطاح ، وحمل الأمير حمزة البهلوان بما أعطى من قوة القلب والجنان ، واختلط الخيبريون بالعرب واشتد لهيب الحرب واضطرب ، وعلا الصياح من كل فارس ، وهمهم كل بطل مداعس ، فأزهقت النفوس ، وقطعت الرؤوس وانقض الأمير حمزة على الخيبريين انقضاض الصاعقة ، وأعمل فيهم طعناته الماحقة ، ومن خلفه رجاله الأمجاد يزأرون كما تزأر الآساد ، وينتزعون الأرواح من الأجساد .

ودامت الحرب على تلك الحال ، الى أن قرب الزوال فدقت طبول الانفصال ، ورجع حمزة برجاله والدماء التى تناثرت عليه تغطى جسده وثيابه ، فتلقاه الملك النعمان بالأحضان وقبله بين عينيه وهو يشكره ويثنى عليه ، وقال له :

— الحقيقة أنك فارس هذا الزمان وحامى حمى العربان .

— انى أقاتل لاحياء شرف العرب ورفع شأنهم . وكان بودى أن ألقى خارتين فأقضى عليه ، لأن آمال قومه تتعلق به ؛ فلو بارزته وقتلته تفرق قومه .

— الأوفق أن تبقى الحرب على ما هى عليه ، ولن تمضى الا أيام قليلة حتى تضعف شوكتهم ويقل عددهم ، وحينذاك يفر خارتين ويترك هـذه الديار . أما مبارزتك لخارتين فقـد تأتى بما لا نريد فينقلب الأمر علينا .

— انك لا تزال خائفا من خارتين . ولكن لتعلم أنه لم يبق من عمره غير هذه الليلة ، فقد يمسى تحت حوافر الخيل ، فكن مطمئن البال ، فانى موعود من الخضر عليه السلام .

وفى الصباح نهض حمزة من فراشه الى جواده ، وسلاحه ، وخرج الى الميدان يتبعه رجاله وجموع العرب . صال وجال ، ولعب على أربعة أركان المجال ، حتى تحيرت منه عقول الرجال ، واندهشت من أعماله الفرسان والأبطال .

وفيما هو على تلك الحال برز له خارتين كأنه الغول فى قبح منظره وطول شعره وأظافره ، وصاح بحمزة :

— أنت هو .. حمزة الذى يقال انه سيقتل خارتين ويبدد رجاله .. ؟

— نعم أنا هو .. وسيشهد اليوم هذا الميدان مصرعك وانقضاء أجلك .

لعب الغيظ بقلب خارتين ، فامتشق حسامه وضرب به حمزة ، فالتقاه حمزة بسيفه ، وأخذ معه فى القتال والضرب بالسيوف الصقال . وشخصت اليهما الأبصار ، وأحدقت بهما أعين النظار ، وعلا فوقهما الغبار .. تارة يفترقان ، وتارة يجتمعان ، كأنهما جبلان يلتطمان ، ودامت بينهما الحال على هذا الشأن نحو خمس ساعات من الزمان . وقد خافت العرب على حمزة من خارتين لما رأت ثباته كالجبال ، وهديره كفحول الجمال ، لأن حمزة صغير السن لا تجارب له فى ميادين القتال ، ودعت الله المتعال أن يخلصه من هذه الحال .

وبغتة سمعوا صيحة عظيمة رددتها السهول ، وجفلت منها الخيول .. وكان الصائح الأمير حمزة وقد انقض على خصمه وضربه بسيفه على عاتقه الأيمن فشقه ، وخرج السيف من تحت

ابطه الأيسر ، فمال خارقين على ظهر جواده وارتمى على الأرض يتخبط فى دمه وقد ذهبت روحه من جسده .

عند ذاك صاحت العرب صيحة الفوز وحمل فرسانهم على الأعداء حملة واحدة ، وكان هؤلاء قد ضعفت عزائمهم عندما رأوا قائدهم يصرع ، فأيقنوا بالهلاك ، ولكنهم راحوا يقاتلون يائسين حتى يستطيعوا الفرار ، وخطر لهم أن يلجأوا الى المدينة للخلاص من قتال العــرب ولكن أهل المدائن كانوا قد تجمعوا وحملوا الســلاح ووقفوا عند الأبواب ، ووقع الخيبريون بين عدوين ، فقتل منهم من قتل ٥ وهرب منهم من استطاع الهرب .

ولما انتهت المعركة عادت العرب الى الخيام للراحة والاستجمام . وقال النعمان لحمزة وقد بهره ما شاهده من فعاله فى الميدان :

— انك فارس عظيم لم أشهد له مثيلا ، ولابد ان كسرى يجعل لك عنده أرفع منزلة وأعلى مقام .

— انى لا أطلب شيئا لنفسى ولا أريد منزلة عند كسرى ، فأنا قادر على أن أنشىء الشرف لنفسى ، انما أريد منه أن يعترفه بفضل العرب وبسالتهم ، فاذا لم يقر بذلك من نفسه ألزمته به بقوة السيف وما أعطانى الله من شدة البأس .

١٥ - على كرسى كسرى

دخل العرب مدينة المدائن ، وناموا بقصر الملك كسرى ، وفى الصباح قصد حمزة والنعمان الى الايوان ، وشاهدا الأموال التى جمعها خارتين وأودعها الخزائن ، فاذا هى شىء كثير لا يكاد يحصى ، فقال النعمان :

— ان هذا المال من حقنا ، انه مال خارتين وقد قاتلناه فأصبح ماله مباحا لنا .

فقال حمزة :

— لا ، انه الآن ملك كسرى ، لأننا نقاتل عنه ، وكل ما يقع بأيدينا فهو له ، فان أهدى الينا كان خيرا ، والا فنحن فى غنى

عنه ، لابد أن يعلم الفرس أن العرب عفيفة نفوسهم وليسوا لصوصا وطماعين كما يقال عنهم .

تناول الملك كسرى كتاب حمزة ، ودفعه الى وزيره بزرجمهر ليقرأه على مسمع من الحاضرين فى مجلسه من كبار قومه ، وقرأ بزرجمهر :

« من حمزة البهلوان عابد الرحمن ومبيد أهل الكفر والطغيان ورافع شرف العربان ، الى الملك كسرى أنوشروان صاحب التاج والايوان .

« لقد ربيت على نعمتك ونشأت تحت رعايتك ، فكان من الواجب على خدمتك والدفاع عن بلادك ، ولهذا جئت بأمر وزيرك بزرجمهر الى المدائن والتقيت بعدوك الخبيث خارتين ، فبارزته فى الميدان ، وفى ساعات قليلة أنهيت أمره وبددت شمل رجاله ، ودخلت المدينة وقد أجليت الأعداء عنها ، فذهبوا تاركين أموالهم وغنائمهم . وانى باق فى المدينة حتى تأتى وتتسلم كرسيك وأموال عدوك ، واليك منى السلام » .

لما سمع الملك كسرى ذلك الكتاب فرح بالأمير حمزة ، وكتب له ردا يشكره فيه ويثنى على فعله ، ويقول له انه فى الطريق اليه .

وذات يوم قبل أن يصل كسرى الى المدائن ، دخل الى الايوان

حمزة والنعمان وأصفران الدربندى وعقيل أمير الثمانمائة فارس ، فوجدوا كرسى كسرى يتلألأ بلمعان البرق ، اذ كان مصنوعا من الذهب الخالص ، منقوشا بأبدع ما صنعه الفرس ، فقال النعمان لحمـزة :

— اجلس على هذا الكرسى ، فأنت أحق به .

— انى لا أطمع فى مثل هذا ، ولا أريد أن أشغل نفسى بمثله عن خدمة العرب والحياة بينهم ، غير أنى أجلس فقط على سبيل التجربة لأرى كيف يكون حال الجالس على هذا الكرسى .

وجلس حمزة على كرسى كسرى فغرق الى وسطه .. لأنه كان مشدودا بالمخمل ومحشوا بريش النعام ، فشعر بليونته ، فقال :

— هنيئا لكسرى جلوسه على كرسيه الناعم .

فقال النعمان :

— هلا جربت التاج على رأسك لنرى كم تزيد على كسرى بهاء وعظمة .

— لا أحب أن أجرب هذا ، فلا يلبس التاج الا من دخل خطة الملوك ، وأنا — كما قلت — غير مشغول بهذا الأمر ، وما أنا الا بدوى ابن أمير أقيم على قبيلة صغيرة .

— اننا جميعا نعترف بشرفك وعلو حسبك ، فأنت ابن أمير

مكة المكرمة أعلى العرب شرفا ، وما الملوك بأعلى منك منزلة ، الى جانب ما حققت من النصر العظيم ، وعما قليل يجيء كسرى أنوشروان أكبر ملوك العالم ويعود الى عرشه بفضلك ، فيعرف لك قدرك ومعروفك .

ورأى حمزة والنعمان ومن معهما من العرب أن يرجعوا الى خيامهم خارج المدينة ويقيموا فيها حتى يأتى كسرى ويدعوهم اليه ، وجاءت الأخبار بقدوم كسرى ، فهرع سكان المدينة لاستقباله وتهنئته بعودته سالما الى عاصمة ملكه . وما ان دخلها وجلس فى الايوان حتى سأل عن حمزة ، فقال له بزرجمهر انه لم يدخل المدينة الا عدة مرات ، كان يأتى متفرجا ثم يعود ، وقد أبقى على أموال خارتين فى الخزائن لم يقرب شيئا منها حتى تعود وتتصرف فيها .

فضحك بختك ساخرا وقال :

— من أين للعرب مثل هذه العفة وهم مشهورون بالسلب والنهب ويعيشون من السرقات والخطف .. ؟

فقال له بزرجمهر :

— لا تقل ذلك عن العرب . ان عملهم لا يعـــد من قبيل السرقة اذا أغار بعضهم على بعض واكتسب ماله بقوة السيف ، على أنهم معروفون بالمروءة ولا يعتدون الا عـــلى من يناصبهم

العداء ، ويكرمون الضيف . ويجيرون الضعيف وكل من يستجير بهم . وما عمل الأمير حمزة معنا الا شاهد على ذلك .

ثم قال كسرى لبزرجمهر :

— لا أريد أن أصبر آكثر من ذلك — أيها الوزير الأمين — عن مشاهدة الأمير حمزة ، فاذهب اليه الآن وأبلغه دعوتى الى الحضور .

وقال لبختك :

— ومن الواجب عليك يا بختك أن تستقبل الأمير حمزة على باب المدينة بالملابس الرسمية وأن تصف العساكر على الطرقات فى غاية من الانتظام .

فأجاب بختك بالطاعة وهو كاره فى نفسه ، لأنه كان يبغض العرب ويعمل على اذلالهم وتحقيرهم .

١٦ - صفعة !

ذهب بزرجمهر الى خيام العرب وأبلغ حمزة دعوة كسرى :
فركب هو ومن معه وتقدموا الى أبواب المدينة ، واستقبلهم الوزير
بختك مظهرا ترحيبه وهو متكدر ، وقد ترجل النعمان وبزرجمهر
كما ترجل بختك ، وتصافحوا ، وفعل حمزة مثلهم وهو لا يعرفه
بختك . ولما سأل عنه النعمان قال له انه الوزير الثانى لكسرى ،
ولم يسترح حمزة اليه لأنه لاحظ تكلفه وما يبدو من خبثه .

وكان من العادة ألا يدخل أحد على كسرى بسلاحه ، بل ينزعه
فى الخارج ، ويحفظه الحاجب حتى يخرج احتراما للملك وحرصا
على حياته من أن يغدر به غادر ، فلما وصل حمزة الى باب الايوان

أراد أن يدخل بسلاحه ، فمد الوزير بختك يده لينزع منه السيف فجفل حمزة ووضع يده على سيفه وداخله الشك فى نيات الفرس .. لعلهم يريدون تجريده من سلاحه ليبطشوا به ، ألم يقل له النعمان أنهم يكرهون العرب ؟ ومد بختك يده مرة ثانية بطريقة متعالية وهو يشير اليه الى أن يسلم السيف ، فغضب حمزة وصاح به أن يتنحى عن طريقه ليدخل بسيفه ولكن بختك اعترضه بوقاحة .. فما كان من حمزة الا أن رفع يده وهوى بها على خد الوزير .. وصرخ بختك وسال الدم من فمه .. ووضع يده على خده وفمه ، ودخل متألما متوجعا ، ونظر حمزة الى النعمان فرآه قد نزع سيفه ، فصاح به :

— تقلد سيفك ، فان الفرس يقصدون بنا شرا .

— ان هذا من عاداتهم ، لا يدخل أحد على الملك بسلاحه .

— أنا لا أعرف هذه العادات ، وليس بينى وبين كسرى اتفاق عليها ، فان أعجبه أن أدخل بسيفى دخلت ، والا رجعت من حيث أتيت .

وسمع كسرى من الداخل الصياح ، ورأى وزيره بختك على تلك الحالة ، فانبهر وخاف أن يكون أحد أغضب حمزة ، فسأل عن الخبر فقيل له ان حمزة لا يدخل الا بسيفه ، فالتفت الى وزيره بزرجمهر وقال له :

— أسرع أدخله بسلاحه هو ومن معه .

— دخل حمزة على كسرى ، فنهض له قليلا عن عرشه ، وصافحه وطلب منه الجلوس الى جانبه ، فجلس وقال :

— لا تؤاخذني يا سيدى الملك على ما بدر منى للوزير بختك ، فقد رأيته يحاول اهانتى .

— لا بأس أيها الأمير ، وهو لا يقصد اهانتك انما هى عادة عندنا .

— نحن لا نعرف هذه العادة .

— لا بأس ، لا بأس .

وجرى الحديث فى مودة ، وساد بين كسرى وحمـزة روح الصفاء والصداقة ، وأمر كسرى أن تمد الموائد ، ودعى اليها الأمير حمزة ورجاله وأعيان الفرس ، ونهضوا اليها يتقدمهم الملك كسرى . ونظر حمزة الى ما على الموائد فوجد صحونا من الذهب تضىء مثل الكواكب وعليها من المآكل الفاخرة مالم يذقه قط ، وعند كل صحن فوطة من الحرير المزركش وملعقة وشوكة من الذهب ، ولما جلس الفارسيون الى المائدة أخذ كل واحد منهم ملعقة وشوكة وجعل يأكل ، وظل حمزة ساكنا لا يمد يده الى المائدة ، فسأله كسرى لماذا لم يأكل ، فقال له :

— انى ربيت على عادة العرب ، ونحن نأكل بأيدينا فان شئتم أكلنا كما تعودنا .

— لا بأس ، فانى أعرف أن البدو يأكلون بأيديهم ، وكل انسان يأكل بالطريقة التى اعتادها .

وبعد الطعام أمر الملك كسرى أن تقدم الهدايا الى كل واحد من العرب ، ثم عرض عليهم كسرى أن يناموا فى أحد قصوره بالمدينة ، ولكن حمزة قال له :

— اننا لا نرغب أن ننام الا فى خيامنا ، فهى أفضل عندنا من القصور الشامخة .

وعندما وصلوا الى خيامهم قال النعمان لحمزة :

— انى سررت اليوم جدا ، لأن كسرى غير معاملته للعرب ، وأبدى لك ما يرفع من قدرهم ، على عكس ما كان ، اذ كنت أحضر كل عام ، فأقابل بغير اكتراث ، بل باهانة فى بعض الأحيان لا من كسرى فقط ، بل كذلك من قومه .

— لابد أن يتغير الحال ، فنعامل العجم نفس المعاملة التى كانوا يعاملون بها العرب .

١٧ - بنت كسرى

كان عمر الكشاف يقف عند باب خيمة حمزة وقد مضى هزيع من الليل ، عندما لاح له شبح يتقدم نحو الخيمة ، فانقض عليه كالبرق وقبض على عنقه وقال له :

— من أنت ؟

— اتركنى فانى عربى مثلك .

— ولكن لبسك لبس الفرس .

انى خادم عند سيدتى « مهردكار » بنت كسرى أنوشروان ، وقد دعتنى هذه الليلة وأعطتنى كتابا لسيدى الأمير حمزة ، وأمرتنى أن أقدمه اليه وأجىء لها بالجواب .

— اعطنى الكتاب وانتظرنى .

فأعطاه الكتاب وخاتما من ذهب عليه فص من الماس هدية من مهردكار الى الأمير حمزة . ودخل عمر على حمزة وأيقظه . فقال له :

— ماذا جرى ؟ ولماذا جئت الى فى مثل هذا الوقت ؟

— ليس الآن وقت النوم فانهض واستيقظ .

— ماذا تعنى ؟ هل وقع أمر مكدر ؟

— لا ، بل وقع أمر مفرح جدا .. جاء رسول من قبل مهردكار بنت الملك كسرى يحمل كتابا لك وخاتما ثمينا ، وهو ينتظر فى الخارج ليأخذ الجواب .

خفق قلب حمزة وشعر بشعور غريب عندما سمع اسم مهردكار ولم يكن رآها ولا سمع بها . وفى الحال نهض من فراشه وتناول الكتاب وأدناه من المصباح وقرأه ، فرآه مكتوبا بالخط العربى . عبرت له فيه عن حبها له ، وقالت انها سمعت عن أعماله وبسالته وهى فى طهران ، فاشتاقت الى رؤيته ، ولما حضرت مع أبيها الى المدائن نزلت فى قصرها المقابل للايوان وسمعت من قهرماتنها أنه سيأتى لمقابلة الملك فى الايوان ففرحت جدا وقالت فى نفسها لابد لى من أن أرى هذا الذى فعل معنا الجميل وأعاد الينا ملكنا وقتل عدونا ، وجلست الى شباك مطل على باب الايوان ، فرأته



كالبدر اشراقا وبهاء والأسد بسالة ، ولاحظت أنه أصغر من معه سنا ، فشعرت بانعطاف قلبها اليه ، واتجهت أنظارها نحوه ، وباحت للقهرمانة بسر قلبها ، وقالت لها : انى أريد أن أرمى بنفسى على هذا الأمير العربى الذى أراه ؛ الى أن قالت « وانى أعدك من هذه الساعة أن أبقى على حبك الى الأبد لا أختار منك بديلا ولا أرضى لى سواك محبا ؛ وانى أريد أن أتدين بدين الله الذى تعبده أنت وأكون زوجة لك .

ولما فرغ الأمير حمزة من قراءة كتاب مهردكار أحس بحبها يغزو قلبه ، وازدحمت على رأسه الأفكار ، وتعجب كيف تدعوه هذه الفتاة الى حبها ومعاهدتها وهى بنت ملك عظيم يستولى على جانب كبير من الأرض . وهو بدوى لا يملك مالا ولا قصورا .. نعم انه قادر بسيفه وقوة جنانه على أن يحقق لها ما تريد وما يناسبها ؛ ولكنه لا يحكم على المستقبل ولا يدرى ما تأتى به الحوادث .

فلما رآه عمر على تلك الحالة قال له :

— لماذا تتأخر فى كتابة الجواب ؟ هل تتردد فى القبول .. ؟ انها بنت الملك كسرى .. أى شرف أكبر من هذا ؟

— ويلك يا وجه القرد ! انى مرتاب فى أمرها ..

— وما وجه ارتيابك ؟

— أخشى أن تكون قبيحة المنظر أو كبيرة السن .. وأن أعطيها كلمة وأعاهدها على الحب ، ثم أراها فلا أجدها موافقة لما أحب ، فأضطر الى الرجوع عن قولى ، ولا أحب ذلك .

— وماذا تريد ؟

— أريد أن أراها أولا وأعرف آدابها ومعارفها .

— يمكن أن نعرف شيئا عن ذلك من الملك النعمان .

— أتريد أن تفضحنا عند العرب .. ؟

— دع هذا لى ، فلن يعرفه أحد .

وخرج عمر الى رسول مهردكار وقال له :

— ان مولاى مسرور من كتاب سيدتك وشاكر لهديتها ولكنه الآن ليس عنده دواة وقلم وقرطاس ليكتب لها الجواب ، وسيكتب لها فى وقت آخر ، فقل لها ان الأمر على ما تحب وتشتهى .

وفى الصباح اجتمع حمزة بالنعمان ، وكان عمر واقفا الى جوار حمزة فقال عمر للنعمان :

— هل لكسرى أولاد ؟ وهل هم مثله فى الرقة والأدب ؟

— له ثلاثة أبناء ذكور ، أكبرهم مرتاج ، والثانى فروخ والثالث خرسف ، أما من جهة صفاتهم فهم مختلفو الأطوار ، وحتى الآن لم يظهر منهم شىء .

ظل حمزة ساكتا مستريحا الى طريقة عمر فى استدراج النعمان ، فتابع عمر حديثه :

— اننا نريد أن نعرف أحوال كسرى وأحوال بلاده وأسرته وهل عنده غير هؤلاء الأولاد الثلاثة .. ؟

— له عدة بنات ، ولكنى لا أعرف أسماءهن جميعا ، والذى أعرفه هو المشهور عن بنته الصغيرة ، واسمها مهردكار ومعناها بلغة العرب شمس الدنيا ، وهى أجمل فتاة فى العجم وفى العرب . وقد طلبها ملوك وأمراء وأبناء وزراء ، ولكنها لم توافق على أحد منهم ، وأبوها يحبها جدا ، وقد خصص لها الأساتذة والمعلمين ، حتى بلغت فى العلم والمعرفة مستوى أحسن الرجال وأذكاهم .

— لابد أنها تقدمت فى العمر حتى وصلت الى هذا المستوى من العلم والشهرة ، فما سنها تقريبا ؟

ولاحظ النعمان أن حمزة مصغ الى الحديث باهتمام وانتباه ، وقال جوابا عن سؤال عمر :

انها لم تتعد الرابعة عشرة ، وقد تعلمت فى وقت قصير لشدة ذكائها ، فى خمس سنوات تعلمت عدة لغات وعلوم نافعة عربية وفارسية .

١٨ ـ حب متبادل

انشغل قلب الأمير حمزة بحب مهردكار ، وأصبح شارد القلب يفكر بالليل والنهار ، فقال له عمر :

— ألم تسمع يا أخى ما قاله عنها النعمان ؟ وانى أراها موافقة من كل وجه ، أسأل الله أن يجمعك بها وتصبح زوجة لك .

— دع عنك هذا الكلام . أليس من الصواب ألا نفكر فى شىء بعيد المنال ؟

— ولماذا هو بعيد المنال ؟

— أرى قبل الدخول فى هذا الشأن أن ننظر فى العواقب ، اذا امتنع كسرى عن تزويجى ابنته أو حالت أمور أخرى بينى وبينها

فسأضطر الى تجريد سيفى وقتل كسرى أو أى شخص آخر يعترض طريقى اليها .

— ان كسرى يحبك ولا يمتنع عن أمر تريده .

— حقا هو يحبنى ، ولكنه لا يرضى أن يزوج ابنته من عربى ، وهم يكرهون العرب ويحطون من قدرهم .

— طيب ، أليست هى تحبك وراغبة فى زواجك ؟ اذن فنأخذها بالقوة اذا رفض أبوها ، واذا شئت دخلت قصرها وحملتها منه الى أى مكان تريد .

— هذا لا أفعله قط ولا أريده ، كيف أسرق بنت كسرى وقد أصفانى مودته وصرنا صديقين ؟

وانصرف عمر الى بعض شأنه ، ورجع بعد برهة فوجد رسول مهردكار قد جاء بطعام من عندها لحمزة وقال انها تسلم عليه وتسأله لماذا لم يحضر اليوم ايوان أبيها ، فقد كانت تنتظر فى النافذة لتراه فقال له عمر انه سيذهب غدا . ثم دخل بالطعام على أخيه حمزة ووضعه بين يديه ، وفتح العلبة ، فاذا هو طعام فاخر ساخن تفوح منه روائح تسيل اللعاب .

نظر حمزة الى الطعام ، وسمع من عمر ما قاله الرسول . وقال :

— لا شك ان الفتاة متعلقة بى ، وليس من المروءة أن أتخلى

عنها ، وانى أستعين بالله على نيل المراد وتذليل ما يقف فى طريقنا من الصعوبات .

لبس الأمير حمزة أفخر ثيابه وتقلد سلاحه وركب جواده ، واتجه الى المدينة ، هو والنعمان وأصفران الدربندى ، ولما قرب من الايوان رفع نظره الى أعلى القصر المقابل ، وقلبه يحدثه أنها لابد واقفة أمام النافذة . وفعلا كانت هناك ، كأنها البدر يتلألأ فى السماء ، لابسة ثوبا أصفر عليه عروق سوداء ، وعليها من الحلى والجواهر ما يزيد اشراق جمالها ، وعلى رأسها اكليل من الزهر الأبيض فوق اكليل من الماس والجوهر يلمع كأنه الكوكب فى الليلة الظلماء . وعندما وقع نظر حمزة عليها أشارت اليه بالسلام وحيته برأسها تحية لطيفة ، فأجابها برفع يده الى رأسه فى حركة كأنه بها يصلح خوذته ، كيلا يلحظ أحد . وأحست هى كأنها تريد أن تلقى نفسها عليه من فوق ، ولكنها ضبطت نفسها وهى فى غيبوبة من الفرح والسرور .

دخل حمزة ومن معه الى كسرى ، فسلم عليه ، ورحب كسرى به ، وأشار اليه ليجلس الى جانبه . وقد زاد فرح حمزة بهذا التكريم من كسرى . واعتقد أن هذا أدعى الى نيل مراده عندما تحين الفرصة لمفاتحته بخطبة ابنته . وكان الوزير بختك بن قرقيش

حاضرا ، ولا يزال يتألم من صفعة حمزة ؛ فشعر بالغيظ من تقريب الملك له واحترامه اياه .

وبعـد السمر والمؤانسة نهض حمـزة ومن معه عائدين الى خيامهم ، وقد طلب منه كسرى ألا يغيب عنه وأن يجيء الى زيارته كل يوم . وعند الانصراف أمام الايوان لمح مهردكار واقفة فى النافذة ، فحياها باشارة كلمح البصر وهو يقفز على ظهر جواده .

قال له عمر وقد جلسا وحدهما فى الخيمة :

— لقد رأيت مهردكار يا أخى فأعجبتنى جدا ، وعرفت أنها تليق بك وتليق بها ، وهى كالبدر جمالا والغصن قدا واعتدالا ؛ فأسأل الله أن يهنيك بها ولا يحرمك منها .

— انى عرفت أنها كما قلت ؛ لكنى ما زلت أخشى أن يتغير علىّ كسرى اذا ما خطبتها منه ويقع بينى وبينه خلاف ، فأضطر أن أحصل عليها بقوة السيف ، الأمر الذى لا أريده ولا أظنها هى أيضا تريده .

— كيف يمنع كسرى عنك ابنته وأنت الذى أرجعت بلاده اليه ؟ انه — على ما أظن — لا يجحد معروفك بل يقدره حق قدره ولا يبخل عليك بابنته .

— اذا صح هذا يا عمر فان هناك خطرا آخر .. هو ذلك

الوزير ابن قرقيش .. انه اذا رأى فرصة سانحة لهلاكى فلن يتردد فى انتهازها .

وقطع الحديث وصول الرسول من قبل مهردكار الذى أقبل ومعه فاخر الطعام والحلوى ، وقال لحمزة :

— سيدتى تهديك السلام وترجو منك مداومة الحضور الى أبيها لتراك كل يوم ، فهى لا تقدر على فراقك يوما واحدا .

— بلغها سلامى وأخبرها أن ما بى أشد مما بها وأن قلبى تعلق بحبها وأنى أريد أن أكون دائما قريبا منها .

١٩ ـ مكيدة وجواز

صار الأمير حمزة يتردد على كسرى بالايوان ، فيمتع ناظريه برؤية مهردكار ، ويبادلها التحية بالاشــارة الخفية ، ويجالس كسرى ويسمر معه فى مودة وصفاء . الى أن حدث ذات يوم أن دخل عليه أخوه عمر وقال له :

— على الباب رجل فارسى يتكلم العربية ، أخبرنى أنه جاء من قبل بختك بن قرقيش ليعرض عليك أمرا فيه خير لك .

— ذلك غير معقول ، ولابد أن فى الأمر سرا ، وعلى أى حال دع الرجل يدخل واحترس منه . ودخل الرجل ، وقال لحمزة :

— اننى يا سيدى رسول الوزير بختك بن قرقيش ، أرسلنى

اليك بكلام ، فاذا أعجبك وافقت عليه والا فالأمر لك .

— قل فانى أسمع لك .

— أمرنى أن أقول لك : انك تنظر اليه بعين العداوة مع أنه يرغب فى مصادقتك رغم أنك اعتديت عليه وأهنته أمام أعيان الفرس ، وقد زادت رغبته فى صـــداقتك لما رأى أن الملك يحبك ويحترمك ، ولكى يبرهن لك على صدقه واخلاصه كلفنى أن أعرض عليك أمر جــواد عظيم موجود عنــد كسرى أنوشروان اسمه « الأصفران » لا يوجد له نظير فى هذا الزمان ، فاذا ملكت هذا الجواد فزت على كل فارس وبطل ، ونلت ما تتمناه .

فلما سمع حمزة هذا الكلام تعلق بالجواد ، رغم يقينه من أن بختك لا يقصد خيرا ، فقال للرجل :

— بلغ مولاك سلامى وشكرى ، وقل له اننى سأطلب هذا الجواد غدا من كسرى ..

— سأفعل يا مولاى ، ولكنى أرجو ألا تخبر كسرى أنك علمت بشأن الجواد من بختك ، الا بعد نيلك اياه وتجربيه فى الميدان .

— لك ذلك .

وكان بختك منذ ضربه حمزة يفكر فى طريقة لهلاكه ، حتى خطر له أمر هذا الجواد الذى أهدى الى كسرى من بلاد الروم

منذ عشرين سنة ، وكان مهرا صغيرا ؛ فعين له من يربيه ويخدمه فلما كبر أراد أن يجربه ، فأمر أحد فرسانه بركوبه ، فما اعتلى الفارس ظهره حتى ضرب الأرض برجليه فألقى به تحت أقدامه ورفسه فى قلبه فأرداه . وأراد كسرى قتل الجواد ، ولكن الفرسان والأعيان أشاروا بالابقاء عليه لأنه جواد عظيم ، واذا كان هذا الفارس لم يثبت على ظهره فغيره يثبت .

وتقدم من كسرى فارس عنيد اسمه « رستم البهلوان » وهو بهلوان بلاد العجم وفارس فرسان الديلم ، وقال له :

— هب لى هذا الجواد ، فأنا قادر على ركوبه واخضاعه .

— وهبتك اياه وأنا برىء من دمك ..

وهم رستم بركوب الجواد ، فضربه بقوائمه ضربة ألقته صريعا على الأرض .. وتكاثر الناس على الجواد وأحاطوا به وربطوه بالحبال وقادوه الى اصطبل خاص . وخاف منه الفرسان ، فلم يجرؤ أحد منهم على ركوبه .

ولما عاد الرسول الى بختك بن قرقيش وأخبره بموافقة حمزة على طلب الجواد « أصفران » من كسرى ، فرح بذلك وأيقن أنه لابد ملاق مصرعه تحت قوائم أصفران ، لهذا كان أسبق الحاشية الى حضور مجلس الملك انتظارا لحضور حمزة وما يحدث بينه وبين أصفران .

كان الأمير حمزة قد انشغل بالجواد واشتاق الى رؤيته ، فبكر هو أيضا فى الذهاب الى مجلس كسرى ؛ وبعد أن استقر به الجلوس وأخذ الملك معه فى الحديث والمؤانسة قال حمزة :

— سمعت يا سيدى الملك أن عندك جوادا لا يقدر على ركوبه أحـــد .

— نعم ، الأصفران ؟

— هل تسمح لى به ؟

— يا أمير حمزة ، ان هذا الجواد خطر ، وقد أمات عـــدة فرسان ، وأنا أريد أن أكافئك بالخير على عظيم فعلك ، ولا أريد أن ألقى بك الى الهلاك .

لما سمع حمزة ذلك اشـــتد ميله الى الجواد ورغبته فيه ، فقال للملك :

— ان هذا الجواد يصلح لى ، وليس من الصواب أن يبقى متروكا لا نفع له ، واذا كنت أخاف من جواد فانى لست أهلا لأن أجلس فى ايوان كسرى وأتشرف به .

لم يجد الملك كسرى بدا من اجابة حمزة الى طلبه ، فأمـــر باحضار الجواد ، ولكن الجميع خافوا ، فلم يجرؤ أحد عـــلى اخراجه من الاصطبل ، فنهض حمزة وقال :

— أنا أذهب الى الاصطبل وأخرج الأصفران بيدى .

وشاع الخبر فى المدينة ، وسر الوزير بختك ، وحزنت الأميرة مهردكار ، اذ خافت على الأمير حمزة من هذا الجواد ، وظلت قلقة فى نافذتها تنظر ، ووقف الملك وحاشيته فى الساحة أمام الايوان ، وازدحمت منافذ الطرقات بالناس ، وامتلأت سطوح المنازل بالنساء والأطفال .

وصل حمزة الى باب الاصطبل ، فقال له الخدم :

— هذا هو الباب وهذا مفتاحه ، فاذا بعدنا فافتحه وأخرجه ..

— كلكم تخافونه .. فمن كان اذن يقدم له العلف ؟

— فتحت له فتحة فى السقف يدلى اليه منها العلف ..

فتح الباب ونظر الى الداخل ، واذا الجواد يصهل صهيلا قويا مدويا ، وتقدم منه بقلب ثابت وجنان قوى وضربه بيده على رأسه وتسلم زمامه وقاده الى الخارج مقيدا ، ولما كان فى وسط الساحة فك قيوده ، وضرب أصفران برجليه ، ورفع أماميتيه الى أعلى حتى استوى واقفا متجها الى حمزة ليبطش به ، فصاح حمزة فيه بصوت قوى وضربه بكفه على صدغه وشد لجامه ، فاعتدل فى وقوفه وهو يأخذ اللجام فى فمه طائعا .. كأنه عرف أن هذا الفارس هو فارسه ..

وقفز حمزة الى ظهر الجواد واستقر فوقه كأنه قطعة من حديد ؛ وأرسل بصره الى نافذة مهردكار بطريقة خفية ؛ فرآها تبتسم .. ثم انطلق بالجواد كالسهم المسدد .. حتى انتهى الى آخر الساحة ؛ ثم دار به الى الجهة الثانية وانطلق كالبرق الخاطف ، ومر به أمام الايوان والملك واقف ينظر مبتهجا ، أما بختك فقد كاد ينفطر من الغيظ ، وزاد كمده لما فكر أن الجواد صار فى قبضة حمـزة وصار حمزة به أقوى مما كان .

وجعل الأمير حمزة يروح ويجيء بالجواد ، حتى لان وسال العرق من جسده ، ثم نزل ، وتسلمه عمر فربطه الى باب الايوان ، ودخل حمزة فصافحه كسرى وقال له :

— ان هذا الجواد لم يخلق الا لك ، ولهذا أقدمه اليك ليكون جوادك الخاص تقاتل به الأعداء .

فشكر حمزة الملك ، ثم التفت الى بختك وقال له :

— لقد كان حصولى على هـذا الجواد بفضلك .. فلو لم ترسل لى من يخبرنى به لما عرفته ؛ فلذلك أشكرك .

فقال بختك والنار تتقد فى أحشائه :

— لقد ظهر لك حبى ، وانى على الدوام فى خدمتك ، لعلمى أن سيدى الملك يحبك ويقدرك فأنا وجميع رجاله المخلصين تتمنى لك الخير .

ولما رجع حمزة الى خيمته كان فى منتهى السعادة ، وقال لأخيه عمر :

— انى أرى نفسى فى هذا اليوم قد ملكت الدنيـا ، فهذا الجواد أعز عندى من كل شىء وهو لا يقدر بثمن .

— أعرف ذلك ، وأسأل الله الذى ملكك الجواد أن ينيلك مرادك وتتزوج مهردكار .

ليس هذا أمرا سهلا ، هل سمعت قبل الآن أن أعجمية تزوجت من بدوى .. ؟ ان بين الحضارة والبداوة بونا عظيما .

— ان لم يكن سبق ذلك فلتكن أنت أول من يسن هـذه العادة ، وما المانع من ذلك والعرب أكثر لياقة من العجم ؟ ثم ان بنت الملك تحبك وهى التى طلبت ذلك ، والملك كذلك يحبك وما طلبت منه أمرا الا كان فعله أسبق من قولك ..

— لقد علقت نفسى بمهردكار وانتهى الأمر ، وعزمت عـلى زواجها ، ولن أرجع عما اعتزمته .

٢٠ - مصارعة البهلوان

كان الأمير حمزة والنعمان ومن معهما من فرسان العرب فى مجلس كسرى ؛ عندما دخل الحاجب يبلغ أن بالباب « مقبل البهلوان » يستأذن فى الدخول ، فأذن له الملك ، فدخل رجل طويل القامة ضخم الجسد كأنه فيل ، قبل يد الملك ووقف ينظر يمينا وشمالا ، فأمره كسرى بالجلوس ، فقال :

— ان سمح لى سيدى الملك فلا أجلس الا بعد أن يجيب لى طلبى .

— وما تطلب ؟

— لا أطلب الا ما هو من حقوقى ؛ باعتبارى أكبر بهلوان فى بلادك .

— اطلب ما تشاء .

— علمت أن أحد العرب ، ويدعى حمزة ، قد جاء الى هذه البلاد وحل فى المرتبة الأولى عندك ، وأنعمت عليه بكل عزيز لديك ، فرأيت أن أجرب نفسى معه ، اما فى القتال ، واما فى المصارعة ، فاذا غلبنى فدمى مباح له ، واذا صرعته فعليه أن يعود الى بلاده بالخيبة ولا يفتخر علينا ، اذ لا يجوز أن يكون بين فرسان الفرس ألوف من البهلوانية الشداد ويأتى رجل بدوى فينال التقدم ، وما العرب الا كعبيد لنا .. لا نرفع لهم شأنا ولا نظم لهم قدرا !

قال كسرى :

— دع هذا الطلب ، فما أنت من رجاله ، وما فى ذلك من فائدة ، وأنت عزيز عندى ، وهو أكثر عزة .

— أنا لا أريد أن يكون أحد فى ديوان سيدى مقدما علىّ ، ويشهد الخاص والعام أنى أشد منه بسالة واقداما .

— هذا لا أوافقك عليه .

كان مقبل البهلوان يتكلم وهو ينظر الى الأمير حمزة ، فعرف حمزة أن الكلام بشأنه ، فسأل بزرجمهر — الذى كان يترجم له ومنه — عن الموضوع ، فحكى له بزرجمهر ما تحدث به ، فقال له :

— أرجو أن تبلغ الملك انى أرغب فى مصارعته ، ومن كان مثلى فلا يخاف من ألف بهلوان مثل هذا البهلوان .

— انى أعرف ذلك ، وأريد أن تصرعه وتريحنا منه ، ومن المؤكد أن بختك بعث اليه وأحضره ، فقد كان غائبا عن المدينة ، وما حضر الا بالاتفاق معه .

ثم التفت بزرجمهر الى الملك ، وأبلغه رغبة الأمير حمزة ، فلم يوافق أولا ، ولكن مقبل ألح عليه حتى قبل .

نزل المتصارعان الى الساحة ، وجلس كسرى فى شرفة الايوان ينظر اليهما ، وتجمع الناس فى منافذ الطرقات وعلى سطوح المنازل ، وأطلت مهردكار من نافذتها .

نزع مقبل ثيابه ولم يبق عليه الا سروال صغير من الجلد ، ثم أخذ شيئا من الشحم ودهن به جسمه ، ثم أشار الى حمزة أن يفعل مثله ، فلم يقبل ، وكان قد نظر الى فوق فرأى مهردكار ،

فنفد صبره على مقبل ، واستقبح أن تنظر مهردكار الى جسم رجل عار ، وانقض عليه فمد يده الى وسطه فتزحلقت على الدهن ؛ وأمسكه مقبل من حزامه وشده اليه محاولا أن يلقيه الى الأرض ، فلم يتزعزع ، بل أثبت رجليه على الأرض كأنه الجبل الراسى . ودامت المحاولة من الاثنين وكل منهما يظهر أقصى قوته ، وخاف محبو حمزة عليه عندما رأوه لا يتمكن من الامساك بالجسد المدهون ، وكانت مهردكار أكثر الناس قلقا على حمزة ، وظلا على ذلك حتى تعب مقبل من شد حمزة ومحاولة القائه على الأرض ؛ ولم يعد فى وسعه الثبات ، وكاد يقع هو من التعب ، فلحظ حمزة ذلك ومد يده الى رقبته وقبض عليها ، وأرسل يده الثانية الى ساقيه ورفعه بكل ما أعطى من القوة والبأس حتى صار فوق رأسه ، ومشى به حتى وضعه أمام كسرى .

وصرف حمزة كل ذلك اليوم عند كسرى وهو مسرور الخاطر قرير الناظر بتقريبه اليه وتقديره له واحترامه اياه . وعند المساء نزل من الايوان وركب الأصفران ، ورفع عينيه وبادل مهردكار النظرات الوالهة ، وسار الى الخيام .

وبعد قليل وصل اليه رسول مهردكار بالكتاب الآتى :

« قد ثبت عندى شدة حبك لى وتنازلك بقبولى لخدمتك ،

وقد نظرت فى حالتنا فعجبت كيف أننا متقاعدون عن تدبير الوسائل لالتقائنا ، وانى أرى ذلك لا يتم الا بتدبيرك ، فاذا تيسر لك أن تتوصل الى فلا تتأخر ، وانى أعدك أن أكون رهينة أمرك أسيرة بين يديك فلا أمل لى فى هذه الدنيا الا أن أكون بجوارك وأراك على الدوام » .

فدعا الرسول وقال له :

— أخبر مولاتك أنى سأسير اليها فى هذه الليلة . فلتكن على حذر ولتدبر أمر دخولى من الباب بحيث لا يرانى أحد .

٢١ - لقاء الحبيبين

دعت مهردكار حارس باب قصرها . وقالت له :

— منذ عشر سنين وأنت حارس على باب قصرى . وأنا لا أمنع عنك شيئا ، وأريد الآن منك أمرا ولك الجزاء العظيم .

— اننى يا مولاتى خادمك المخلص فمرينى بما تشائين .

— لا يخفى عنك أمر حمزة البهلوان الذى جاء الى هذه البلاد وفعل ما فعل حتى غمر بلادنا بأفضاله . وكنت لا أعرفه ، بل أسمع عنه فقط ، فقصدت أن أراه لأكافئه على فضله ، وسيزورنى فى هذه الليلة ، فلا تمنعه اذا جاء ، ولا تظهر أمره لأحد .

ودفعت اليه بقبضة من الدراهم ، فتناولها فرحا وهو يقول :

— أحقا ما تقولين يا سيدتى .. وهل أرى الأمير حمزة يأتى الى هذا القصر ؟

— نعم ، بعد قليل .

— انى مولع به يا سيدتى ، وأنا مستعد أن أفديه بروحى ، وأعاهدك ألا أمنعه وألا أخبر أحدا بمجيئه ولو كان فى ذلك فقدان حيـــاتى .

وصرفت الخدم ، ولم تبق معها الا قهرمانتها العجوز ، وأمرت الرجل الذى اعتادت أن ترسله الى حمزة أن يقف فى الخارج ليخبره بأن كل شىء على ما يرام .. ولبست أفخر ما عندها من الملابس والحلى ، وخرجت الى الغرفة التى أعدتها القهرمانة لاستقبال حمزة فوجدتها على أحسن ما تكون . وجلست تنتظر بقلب خافق ، وجعلت تفكر فيما تقول له ، وما يقـــول لها ، وشعرت بسعادة ممزوجة برهبة .

أما الأمير حمزة فانه استصحب أخاه عمر وذهبا الى المدينة ، وسارا حتى قربا من قصر مهردكار ، فوجدا خادمها فى الانتظار ، ودخل حمزة القصر والخادم يسير أمامه من سلم الى آخر ومن دهليز الى دهليز ، حتى وصل الى حجرتها بالطابق العلوى ، فلما شعرت به اضطرب قلبها وخرجت للقائه ، فلما رآها لم يتمالك

نفسه أن قبلها قبلة اللقاء ، وأخذته من يده ودخلت به ، واذا هو يشم فى الغرفة روائح الند والعنبر والزهور ، وجلس على كرسى من المخمل الأحمر المزركش ، مما لا عهد له به من قبل ، قالت مهردكار :

— ما كنت أظن الزمان يسمع بهذه السعادة ، لقد وصلت الآن بقربك الى منتهى ما كنت أتمنى .

— اننى مثلك أشعر بهناء وراحة عجيبين ، لم آكن أظن أن ألاقى مثلهما فى حياتى ، وسأطلبك لنفسى زوجة من أبيك . فاذا أجاب كان خيرا والا أخذتك بقوة السيف ، ولن تكونى لغيرى أبدا ما دمت على قيد الحياة .

— اننى أفضل أن تبقى الصداقة بينك وبين أبى على حالها ، وأنا أحب أبى وأريد أن أظل مطيعة له .

ولحظت مهردكار أن الأمير حمزة تكدر بعض الشىء ؛ فقالت برقة :

— لا تشغل بالك يا حبيبى بهذا الأمر الآن ؛ ولماذا نقدر السوء قبل أن يقع ؟ دع كل شىء الى وقته .

وقضيا ساعتين فى الحديث ومناشدة الأشعار وتناول ما لذ وطاب من الطعام والشراب ، ثم قال لها وهو يتأهب للانصراف :

— أريد أن تعاهدينى على الوفاء والمودة الدائمة ؛ وانى آقسم لك بالله العظيم وبيت الله الحرام أن أبقى على حبك الى الأبد وأن أطلب زواجك حتى أحصل عليه ولو حالت دونه ألوف من المصاعب .

— وانى أيضا أقسم بربك الذى أعبده أن أحافظ على حبك حتى الموت وأرعى عهدك ولا أخونه قط .

— غدا سأذهب الى أبيك كالمعتاد ، وفى أثناء حديثى معه أطلب يدك منه وأنظر ماذا يقول ولا أظنه يمتنع عن اجابتى الى طلبى ، ولكن بعض الحاشية قد يشيرون عليه بغير ذلك .

— اننى أحذرك من الوزير بختك ، فهو رجل خبيث ، وأبى ينقاد له لمكانته فى البلاد ، فهو من أسرة كبيرة ، والناس يعرفون أن بزرجمهر أعقل منه وأحكم ، غير أنهم يعلمون أنه يعبد الله ولا يعبد النار ؛ ولهذا يحبون بختك أكثر منه .

ذهب حمزة فى اليوم التالى كعادته الى مجلس كسرى ، وجعل الملك يحادثه متبسطا معه ، وحمزة سارح فى أمر علاقته بمهردكار وكيف يفاتح أباها فى خطبتها منه . وكان بزرجمهر كالعادة يترجم بين كسرى وحمزة ، وقال الملك لوزيره بزرجمهر :

— أبلغ الأمير حمزة أننى أشعر دائما بالجميل الذى صنعه

معنا ولا أنساه قط ، وحتى الساعة لم أكافئه ، وأريد أن يطلب منى ما يتمنى ، ولن أرد له طلبا مهما كان ، مقابل فضله العظيم على بلادنا .

فقال حمزة لبزرجمهر :

— أخشى أن أطلب شيئا فلا يجيبنى اليه .

— أطلب ما تشاء .

— أريد أن تسأل الملك زواجى بابنته مهردكار ..

لما سمع ذلك بزرجمهر جف ريقه واضطرب .. وقال :

— ان هذا الذى تطلبه لا يمكن أبدا .. فارجع عنه ولا تلق بنفســك فى سبيل العناد فينقلب الحب بينك وبينه الى بغض وعداوة ، اطلب أمرا لا يمس ناموسه ودينه .

— لا أريد الا أن يسمح لى بابنته .. فان أجاب بالرضا كنت له خادما على طول الزمان والا جردت سيفى فى وجهه حتى أنال بغيتى ، وأنا لا أطلب أمرا يخل بناموسه ودينه ، فالزواج سنة محمودة عند بنى الانسان ، ومن حيث الدين فان مهردكار على دين الله عز وجل .

احتار بزرجمهر ، ولحظ كسرى من حال حديثهما أن حمزة لابد يطلب أمرا خطيرا ، فقال للوزير :

— أخبرنى بما يطلب حمزة ، فانى لا أرفض له طلبا ولو كان يتعلق بابنتى مهردكار ..

— انه يطلب ذلك يا سيدى .. يريد أن يتقرب منك فيتزوج الأميرة مهردكار .

استحى الملك أن يرجع فى كلامه ، فقال على الفور :

— بلغ حمزة أنى أجبته الى طلبه .. حقا ان ابنتى مهردكار بنت أعظم ملوك هذا الزمان ، وقد أعطيت من الحسن والآداب والعقل مالم يعط لغيرها ، ولكنها تحتاج الى زوج كفء كالأمير حمزة .. وزواجه بابنتى لا يفى بفضله علينا وتخليص بلادنا من العـــدو .

٢٢ ـ ابنة الملك

كان لموافقة الملك كسرى على زواج ابنته بالأمير حمزة أثران مختلفان :

أولهما الفرحة الكبرى عند مهردكار وحمزة والعرب ، وقد دهش النعمان من ذلك أيما دهش . فلم يكن يصدق أن يزوج الملك كسرى ابنته من عربى مهما كان شأنه . والأثر الثانى كان الاستنكار الشديد من جانب أعيان الفرس وعلى رأسهم الوزير بختك الذى ساءه هذا النبأ أيما اساءة ، فطلب مقابلة كسرى على انفراد ، وقال له :

— لقد جئت اليك يا سيدى فى هذا الوقت لأنى رأيت منك

فى هذا اليوم ما أدهشنى وكدت لا أصدق أنك كسرى أنوشروان ..

— ما الذى أدهشك ؟ وما تقصد ؟

— كيف رضيت أن تزوج مهردكار من هذا البدوى ؟ انه لو أراد الزواج من أية بنت فارسية عادية لأبينا عليه ذلك ، فكيف ببنت كسرى ملك الفرس وسيد الملوك . ان هذا الزواج ان تم فسيغضب النار .. ويغضب رعاياك ، وانى باعتبارى واحدا منهم ، وباعتبارى مسئولا عن حفظ ناموس الدولة ، أرجوك الرجوع عن هــذا الأمر ..

— هذا مستحيل ، لأنى وافقت ولا يمكن أن أرجع ، على أنى أرى الأمير حمزة أهلا للزواج من مهردكار ، بل هو أهل لأن يكون حاكما على بلاد الفرس ، ولابسا تاجى .

— انك قد تغيرت يا سيدى . واعلم ان النار تدعوك الى العدول عما اعتزمته من تزويج ابنتك لرجل على غــير دينها ، وستضطر اذا تزوجته أن تعبد الله الذى يعبده . وسيظن العرب أنك خفت من بأسهم ومن بأس أميرهم حمزة فزوجته ابنتك ، فيطمعون فينا ويصبح لهم الحق فى الملك بعد المصاهرة واتصال النسب . هذا الى أننا الآن لسنا بحاجة اليهم ، فقد انقضى ما كنا نريده منهم .

سكت بختك ريثما يرى وقع كلامه عند كسرى ، فرآه مطرقا فاستأنف يقول :

— وأنا يا سيدى أستطيع أن أخلصك منه بطريقة أخرى غير الرجوع فى قولك .

رفع كسرى رأسه وقال :

— وما هى هذه الطريقة ؟

— اذا سألك حمـــزة الانجاز بالوعد فقل له انى وعدتك ولا أخلف وعدى ، ومن ناموسنا أن تطلبها من الوزيرين بزرجمهر وبختك ، ولا شك أن بزرجمهر سيوافق ، أما أنا فأدبر أمرى .

وفى صباح اليوم التالى حضر حمزة الى الايوان واستقبله كسرى بالبشاشة والترحيب ، وأجلسه الى جانبه ؛ ولما سأله حمزة عن موعد الزفاف ومقدار ما يريد لابنته من المهر ، قال كسرى :

— لقد وافقت على زواجك بابنتى ؛ ولكن الأمر يستلزم قبل ذلك استشارة الوزيرين بزرجمهر وبختك ، ولا سيما أن بختك يحب أن يرى ان كان ذلك موافقا للشريعة الفارسية أم لا .

نظر حمزة الى بزرجمهر ، وعرف كل منهما أن فى الأمر دسيسة ، وأبدى بزرجمهر موافقته ، وقال حمزة لبختك :

— هل تقبل أيها الوزير ، أم ترى أن هناك ما يمنع من هذا القران ؟

فقال بختك فى لهجة من يتحدث بحزم فى أمر له خطره :

— كنت أمس مجتمعا بسـيدى الملك ، فوجدته مضطرب الأفكار ومشغول البال ، فقلت له : لماذا أنت متكدر يا سـيدى وقد كنت فى النهار مسرورا بزواج ابنتك من الأمير حمزة ، ومن اللازم أن نهتم بهذا الزواج ونستعد للاحتفال به ، لأن أهل البلاد ينتظرونه ويحبون أن يفرحوا ببنت ملكهم وبالأمير حمزة مخلص بلادهم من الأعداء .

فقال لى سيدى الملك :

— انى من أجل ذلك مهموم لا ندما على وعدى للأمير حمزة فهو يستحقها وله عندى منزلة لا توصف .. غير أنى كنت أريد قبل ذلك أن أرسله الى « معقل البهلوان » صاحب حصن تيزان ، الذى عصانى وخرج على طاعتى ، وأنا الآن فى حرج . أخشى أن أعرض هذا الأمر على الأمير حمزة فيظن بى السوء .

فقلت له :

— ان المسألة سهلة جدا ، فمن عادة العرب ألا يتزوجوا فتاة مالم يقدموا لها مهرا ، فليكن اخضاع معقل البهلوان هو صداق مهردكار . ولا شك أن الأمير حمزة يهمه أن يقضى على ما يكدر الملك قبل الاحتفال بزواجه .

لما سمع بزرجمهر ذلك فطن الى حقيقة المكيدة التى يدبرها بختك لحمزة ، فان معقل البهلوان فارس عنيد متحصن فى قلعته وقد بدد كل الجيوش التى ذهبت اليه .

ولكن حمزة نهض واقفا أمام كسرى وهو يقول :

— أقسم بالله العظيم رب موسى وابراهيم وبالركن والحجر والبيت العتيق المطهر أنى لا أتزوج بمهردكار مالم أحضر ذلك العاصى الى هذا الايوان خاضعا ذليلا .. وأقسم برأس كسرى صاحب هذا الايوان أن أسير اليه وحدى .. ولا يصحبنى الا أخى عمر الكشاف ، ولن أصبح فى الغد الا على الطريق الى تيزان انجازا لغاية عمى الملك .. أبى مهردكار .

٢٣ـ لقاء الفرسان

ركب حمزة جواده الأصفران ، وسار فى طريقه الى تيزان ، ولما تبطن القفار ، وتمادى به التسيار ، تذكر محبوبته مهردكار ، وحبها الذى يدفعه الى ملاقاة الأخطار ، فأنشد وقال :

يكفيك أنى فارس الأقطـــار	ومذل كل سميدع جبـــــار
وقويم رمحى قد أعـــد سنانه	لصدور أهـــل البغى والكفار
ان كان بختك قد سعى بمذلتى	فالدهر زاد بهيبتى ووقـــارى
لولاك يا شمس الجمال ونوره	أنزلت بالأعجام كل دمـــــار

وظل حمزة سائرا عدة أيام ، وبين يديه أخوه عمـــر يخترق

الشعاب والقفار ، كأنه السهم اذا أطلق من الأوتار ، الى أن قربا من تيزان ، وتبينا على بعد قلعة « معقل البهلوان » فنزل الأمير عن جواده ، وكان الوقت مساء ، فناما الى الصباح .

نهض حمزة وركب الأصفران ، وتقدم الى جهة القلعة ، فرأى اثنين من أتباع معقل البهلوان ، فلوى عنان جواده نحوهما ، وقال لهما :

— اذهبا الى الأمير معقل وأخبراه أن حمزة العرب قد جاء من بلاد كسرى لمنازلته ، وقولا له يبرز الى فى ساحة القتال .

فقالا له :

— اننا ننصحك أن ترجع من حيث أتيت ولا تعرض نفسك للأخطار ، فما معقل البهلوان ، كمن رأيت من الفرسان ، ونحن نخاف عليك أن تعدم حياتك وأنت فى زهرة شبابك . من الجنون أن تلقى بنفسك الى أحضان الدمار .

وبينما هم كذلك ، اذ رأوا فارسا يقبل من جهة القلعة متقلدا سلاحه راكبا على جواده ، يتجه نحوهم ، قال الرجلان لحمزة :

— ها هو ذا أميرنا معقل البهلوان ، والويل لك منه .

التقى البطلان وحدق كل منهما بالآخر . ثم قال معقل البهلوان للأمير حمزة :

— انى أتوسم فيك الخير ، وليس بينى وبينك عداوة ؛ فلماذا جئت الى وماذا تريد منى ؟

— علمت أنك عصيت الملك الأكبر ، فجئت كى أخضعك وآخذك مقيدا ، وأقدمك الى الملك كسرى مهرا لابنته .

— ولماذا تقاتل من لا يريد أن يقاتلك ؟

— لا تريد أن تقاتلنى ؟

— نعم . فقد جاءتنى أخبارك ، وأرسل الى بشأنك الوزير بختك وأخبرنى بالحيلة التى أراد أن يوقعك فيها ، وطلب منى أن أستعد لك وأقتلك ، وقد علمت بمجيئك من حارسى الذى رآك على الطريق .

— ولماذا لم تنفذ ما طلبه منك ؟

— لأنك تعبد الواحد الديان . وأنا أيضا على عبادته ، وأحب أن أقول لك يا أمير حمزة ، لا تثق بهؤلاء العجم ، ولا تعلق أملا على وعودهم ، فكسرى رجل متردد ضعيف الارادة ، وبختك محتال غادر ولو لم أكن عارفا ما حملهما على أن يلقياك الى وهدة الهلاك لقاتلتك ، غير أنى رأيت أن أصاحبك الى المدائن لتخربها على رأس كسرى وبختك وتأخذ مهردكار بالقوة وتتزوجها .

نظر اليه حمزة مندهشا ، وكاد يوافقه لولا أنه تذكر القسم الذى أقسمه فى ديوان كسرى .. أن يقود معقل البهلوان ذليلا . فقال له :

— لا تظن أنى ممن يقاد بالحيل والخداع ، فما أتيت الى هذه البلاد الا لآخذك مقيدا الى كسرى ، فكيف أخلف وعدى وأحنث فى يمينى وأتفق معك عليه ؟ خذ سلاحك والقنى .

وجرد سيفه وهجم على معقل البهلوان ، فالتقى به معقل بقوة قلب وثبات جنان ، ودخل معه مجال الحرب والطعان ، وتركا الكلام والجدال ، وهاجا كما تهيج فحول الجمال . وداما على هذا الحال الى أن قرب الزوال ، فكفا عن القتال ، دون أن ينال أحدهما من الآخر أى منال ..

وقال معقل البهلوان وهو يدخل سيفه فى غمده :

— قد انتهى الشوط دون أن نصل الى نتيجة ، وبما أنك غريب هنا فتعال معى الى القلعة لتأكل الطعام وتنام فى قصرى .

— كيف يكون ذلك ؟؟ وكيف آكل طعامك ثم أقاتلك ؟؟ ثم كيف آمن على نفسى وأنا عند عدوى ؟؟

— ليس بيننا عداوة .. انى أعتبرك أكبر صديق لى .. انما

أردت أن أثبت لك أنى لا أطلب صداقتك خوفا وجبنا .. واذا جئت معى الى القلعة فسترى صدقى ، وأطلعك على كتاب بختك والمال الذى بعث الى به . وعلى كل حال اذا كنت ترغب فى النزال فاننا نعود اليه فى الصباح ، ونعود الى الألفة والمودة فى المساء ، الى أن يظهر الفوز لواحد منا .. وثق أنى صديقك على أى حال ، ويسرنى أن تتخذنى صديقا لك ، فانى لم أقاتل فارسا مثلك قط .

لما سمع حمزة كلام معقل أحس بأنه صادر عن اخلاص ومودة وصدق ، فاحتار فى الأمر ونظر الى عمر الكشاف كأنه يستشيره ، فقال له عمر :

— ادخل مع معقل البهلوان الى قلعته ونم عنده ، فمثله لا يخون .

فنزل الأمير حمزة عن جواده ، وسار مع معقل ، وكل منهما فرح بالآخر ، واستقبل حمزة فى القلعة بالترحيب والاكرام . وبعد الراحة والطعام جاءه معقل بكتاب بختك والأموال التى أرسلها اليه ، وقال له خذ كل هذا معك ليكون حجة لك تقنع بها هذا الوزير الخبيث .

— انى لا أزال أراعى الفرس وأتجنب كل أمر يلقى العداوة

بينى وبينهم ، من أجل مهردكار واكراما للوزير الطيب بزرجمهر ، وقد تفرغ جعبة صبرى يوما ما دام فيهم بختك ، هـذا الخبيث المخادع المحتال .. فأثير عليهم حربا هائلة تنقرض بها دولتهم .

— وماذا تريد الآن ؟

— لا أريد أن أدخل المدائن الا وقد وفيت بوعدى وقسمى .

— يخطر لى أن أسلم نفسى اليك وأسير بين يديك ، حتى تقدمنى الى كسرى ، فتكون قد وفيت وصدقت ..

— وهذا أيضا لا أريده .. لأنى ما جئت الا لمحاربتك .. نعم انه قد زالت من بيننا العداوة ، وصار كل منا لا يرغب فى دم الآخر ، ولكن لابد من مداومة المبارزة ، فاذا قهرتنى كان رجوعى عن غايتى بحق وصدق ، والا فيكون ما أطلبه باستحقاق وعدل ، وأنا لا أحب الغش .. سواء لكسرى أو حتى لأعدى أعدائى .

دهش معقل من كلام حمزة ، وأعجب بشهامته وشرف نفسه ، ولم يسعه الا الخضوع لما يراه .

وفى صباح اليوم التالى التقى البطلان فى الميدان كأنهما عدوان لا صديقان .. وجعل كل منهما يبدى كل ما عنـده من ضروب القتال ، حتى جاء وقت الزوال ، فأغمدوا سيفيهما وعادا الى القلعة

وكل منهما معجب ببسالة الآخر وأسلوبه فى الحرب ؛ وأكلا وشربا وتحدثا وناما .

واستمر بينهما الحال على ذلك المنوال خمسة عشر يوما .. حتى قلق الأمير حمزة من طول غيابه عن العرب فى المدائن ؛ ولعب به الشوق الى حبيبته مهردكار ، وداخله الندم على مسالمة البهلوان ، وقال فى نفسه لو لم أدخل معه القلعة وآكل معه الطعام لكان قلبى قد قوى عليه وهزمته وعجلت بالرجوع ؛ ثم انصرفت أفكاره ومشاعره كلها الى مهردكار ..

وفى صباح اليوم السادس عشر ركب جـواده الأصفران ، وخرج الى معقل البهلوان فى ساحة الميدان ، وقال لمعقل بعد أن حياه :

— اعلم ان هذا اليوم هو اليوم الأخير ، ولابد فيه من انهاء الأمـــر .

واشتبك الاثنان فى أشد قتال ، وأعظم نزال ، لا يأخذهما فتور ولا اهمال ، كأنهما أسدان فى أدغال ، أو لبؤتان فقدتا الأشبال ، الى أن كان العصر ؛ وهما على هذا الأمر .

وأراد حمزة أن ينهى القتال فضاعف جهده ، وسدد ضربة

قوية وقعت على رقبة الجواد ، فبرتها كما يبرى الكاتب القلم ، ووقع معقل الى الأرض .. ورجع حمزة الى الوراء وهو يصيح :

— قم أيها الفارس الأمجد ، واركب جوادا آخر ولا تضيع فرصة باقية لنا من هذا النهار ..

— معاذ الله يا أخى ان أشهر بوجهك حساما .. انك أشجع رجل فى هذا الزمان ، وأعترف أنك قهرتنى وصار لك الحق أن تربطنى بالحبال وتأخذنى أسيرا الى كسرى ، واذا أردت أن تكرمنى فاتخذنى صديقا أمينا ، وسوف تظهر لك الأيام اخلاصى وصدقى .

فنزل حمزة عن جواده ، وقبل معقل بين عينيه ، وقال له :

— انك أخى ورفيقى على طول الزمان ، وقد عرفت اقدامك وشجاعتك ، ولولا قتل جوادك ما حل بك ما وقع .

٢٤ - إلى عمى كسرى

كان الملك كسرى — بعد سفر حمزة — يجتمع كل يوم بوزيره بختك ، ويدور الحديث بينهما عن حمزة فيؤكد له بختك أن حمزة لابد أن يقتله معقل البهلوان ، وكم قتل قبله من فرسان .. وكسرى يتردد فى كلامه ، ويقول له انى لم أكن أريد موت حمزة ، فقد صنع لنا معروفا وليس من العدل أن نكافئه بالموت .. غير أن طلبه الزواج من ابنتى جعلنى أسلم بهلاكه ، فان شريعة النار لا تبيح اختلاطنا بأجلاف العرب عباد الله .. وحقا ان حمزة كفء لابنتى لأنه فارس وبطل مجيد ، ولكنه عربى ومن العار أن نزوجه ..

حتى كان يوم وصول حمزة ، حين جاء الخبر بوصوله سالما

ومعه معقل البهلوان . صعق بختك وقال للرسول الذى أبلغ النبأ :

— هل رأيت معقل البهلوان مقيدا ؟

— رأيته راكبا على جواده الى جانب حمزة .

فقال كسرى لبختك :

— قلت لى أن حمزة لن يعود سالما من قتال معقل ، فها هو قد عاد ولا شك أنه أسره ثم أطلقه واصطحبه . كنا أمام واحد فأصبحنا أمام اثنين .

فقال بختك يحاول أن يخفف الأمر :

— لا أظن ذلك ، وأغلب ظنى أن معقل البهلوان هو الذى أسر حمزة وأطلقه وجاء واياه الى حضرتك ليقدم طاعته اليك .. ولو كان حمزة هو الذى أسر معقل لما أطلقه الا أمامك لأنه يريد أن يدخله مقيدا ذليلا ...

وفيما هما على ذلك دخل عمر الكشاف من باب الايوان ، ودفع الى كسرى الكتاب الآتى من حمزة :

« من حمزة العرب الى عمه الملك كسرى ..

اعلم يا سيدى أنى سرت من حضرتك وأنا أتمنى أن أصل الى معقل البهلوان لاذلاله ، وأعيده الى الطاعة ، لأنه يصعب على أن أكون صهرك وبهلوان تختك وصفيك وأسمع أن أحدا من الناس

يعصى أمرك . ولما وصلت الى قلعة تيزان قاتلته عدة أيام ثم أسرته وتملكت القلعة وأنا وحدى ليس معى الا رفيقى عمر الكشاف ؛ والحق يقال ان معقل فارس من الفرسان الشداد لا أظن له ثانيا فى هذه البلاد . وقد استجار بى فأجرته وجئت به . وهو الآن فى قبضتى ، وأبعث اليك هذا لأبشرك وأطلب اليك أن ترسل لى قفصا مع عمر لأحبسه فيه وأدخله اليك مقيدا فى هذا القفص ليعرف عظمتك وأنت قادر على نيل مرادك وكيد أعدائك . ولا أريد منك مقابل ذلك الا رضاك وترك كلام المبغضين الذين يقصدون الضرر لك ولدولتك ، والسلام .. » .

قرأ بزرجمهر هذا الكتاب وترجمه لكسرى ، ثم قال له :

— اعلم يا سيدى أن الأمير حمزة هو نادرة هذا الزمان وفارس لا نظير له فيه ، وقد سبق صيته فعله ، وما جاء الا رحمة لبلاد الفرس وأرى أن تتخذه سندا لك وتصفو له نيتك ، فمن كان مثله لا يترك ولا يهان .

كان بختك يسمع ذلك وقلبه يتقضع ، ولم يسعه الا أن يخرج من الديوان مطرقا حزينا . وأنعم كسرى على عمر الكشاف بألف دينار وأمر أن يعطى قفصا من الحديد ليوضع فيه معقل البهلوان .

٢٥ـ البهلوان فى قفص

قال الأمير حمزة لمعقل البهلوان :

— انى كما تعلم يا أخى قد أقسمت بالله العظيم أن أقدمك الى كسرى مقيدا ، ويصعب على أن تدخل الا مكرما ، غير أنى أحب أن أبر بقسمى ، فلا عليك أن تدخل هذا القفص .. لأنى سأطلقك منه هناك .

— انى لا أخالف ما تأمر به ، غير أنى أعرف أن كسرى سيأمر بقتلى فى الحال .

— يصعب على اذلالك ، أما قتلك فلن يجرؤ عليه أحد ما دمت الى جوارك .



توجه معقل البهلوان الى خيمته لينام حتى الصباح ، أما الأمير حمزة فان عينه ما كادت تغفو حتى جاءه رسول مهردكار بكتاب تبثه فيه لواعج شوقها وتعرب له عن سرورها بعودته وانتصاره وتوفيقه فى مهمته . وكتب لها جوابا قال فيه انه لا يقل عنها شوقا وحبا ، وأنه يتحمل من أجلها كل عذاب ولو كلف أن يسير الى أقصى الأرض ما دام فى ذلك رضاء أبيها الذى يتوقف عليه نيل مراده بزواجه منها .

وفى الصباح ركب حمزة جواده الأصفران ، وسار نحو الايوان ، والى جانبه الملك النعمان ، وباقى أمراء العربان ؛ ولما قرب من الايوان نظر الى فوق فوجد مهردكار جالسة قرب النافذة تنتظر قدومه وهى بالملابس البيضاء الحريرية ؛ وعليها من الجواهر ما يتكسر على نوره ضوء الشمس ، وعلى رأسها اكليل من الماس محاط بباقات من الزهور البيضاء والحمراء . ولما رأته تبسمت ووضعت يدها على قلبها ، فأجابها بمثل اشارتها ، وان كان لم يلمح دمعة فرح انحدرت من عينها الى صدرها .

وكان الرجال قد سبقوا بمعقل البهلوان محمولا فى القفص الى كسرى ، وقد سر هذا بأسر معقل وقال له :

— كيف ترى نفسك الآن أيها المتكبر المعتدى ؟ أكنت تظن

أني أعجز عنك ؟ لقد بعثت اليك برجل واحد فأتى بك على هذه الحالة ..

— انك لو بعثت الى رجـال العـالم جميعا وأنا فى حصنى لما حسبت لهم حسابا ولا كنت ترانى فى مثل هذه الحالة ، غير أن الأمير حمزة خدع بكم وتوهم فيكم صفاء الباطن والنية فسعى فى تنفيذ رغبتكم .

فقال بختك لكسرى :

— أرى يا سيدى أن تأمر بقتله فى الحال وتريحنا منه ، فهو يتطاول حتى وهو فى الأسر ..

فقال معقل :

— ليس فى وسع أحد أن يمد يده الى ، الا الذى أسرنى ، فهو وحده له حق التسلط على والتصرف فى أمرى .

فاغتاظ كسرى من كلامه ، واغتنم بختك الفرصة فأراد أن يعجل بقتل معقل البهلوان خوفا من أن يظهر الكتاب الذى بعثه اليه كى يقتل حمـزة ، فأمر أن يحمـل القفص بما فيه ويلقى فى النار .

وهم الجنود بحمل القفص ، واذا حمزة يدخل هو ومن معه ، فأدرك حمزة الموقف من صياح معقل والتفاف الجنود حوله ،

فصح بهم وهجم عليهم غير ملتفت الى كسرى .. وقد جرد السيف ، فارتعد الجميع منه ولا سيما الوزير بختك الذى أيقن أن حمزة اذا أعمل سيفه فسيكون هو أول فريسة له .

أما الملك كسرى فانه التفت الى الوزير بزرجمهر قائلا له :

— قل للأمير حمزة يغمد سيفه ويهدأ .. ونحن نجيبه الى كل ما يطلب ، وقل له اننا لم نكن نعلم أن معقل فى ذمته وحماه ..

فأبلغ بزرجمهر كلام الملك ، وطلب منه أن يتقدم من كسرى ويقدم له واجبات الاحترام ، فأطاع حمزة وفعل ما أشار به بزرجمهر لحبه واحترامه له .

وقال حمزة لكسرى بعد أن سلم عليه وقبل يديه :

— انى يا سيدى لا أسلم بقتل هذا الفارس العظيم والبطل الكريم ، ففى بقائه نفع لنا ، وقد عاهدنى على الصداقة والاخلاص ، وانى أرجو أن ينال من رعايتكم مثل ما أناله أنا .

فأمر كسرى باطلاق معقل البهلوان من القفص وفك قيوده ، فما كان من معقل الا أن تقدم من كسرى وشكره وقبل يده .

٢٦ - جمع الأموال

توجه كسرى الى قصر ابنتـــه مهردكار ، فاستقبلته فرحـــة مستبشرة بقدومه ، وجلسا يتحادثان ، قال لها :

— اعلمى يا عزيزتى أن الأمير حمزة وحيد فى هذا الزمان ، وقد وعدته بالزواج منك ، ولابد من اتمام هذا الزواج ، ولولا بختك ما أرسلته الى تيزان ، وقد عاد منصـــورا ومعـــه معقل البهلوان .

أطرقت مهردكار حياء وقالت :

— أنت والدى ومدبر أمرى ، وأنا واثقة من حبك الأبوى وأنك لا تفعل الا ما فيه مصلحتى .

وقصد كسرى بعد ذلك الى ايوانه ، فوجد الوزير بختك فى انتظاره ، وقال بختك :

— انى أعرف يا سيدى أن حمزة لم يبق له الا أن يطلب اتمام زواجه بمهردكار ، وقد جئت الليلة لأعرض عليك طريقة تحفظ ابنتك من عدوك وعدوها ..

— انى لا أرى مانعا يمنع من اتمام هذا الزواج .

— لا يا سيدى ، انى مسئول عن شرف الفرس وملك الفرس ، ولا أريد أن يسود علينا العرب ويظنون أننا نخافهم ، فلابد أن تتخلص من هؤلاء البدو ، ليعودوا الى بلادهم ويرعوا ابلهم وغنمهم .

فأطرق كسرى قليلا ، ثم رفع رأسه وقال لوزيره :

— لو فتشت قلبى لوجدتنى أميل الى حمزة ، وأريد أن يكون زوجا لابنتى لو كان من عباد النار .. ولكنى أرى من الضرورى أن أتغلب على ميلى هذا من أجل صالح البلاد وعبادة النيران .. ولكن قل لى : ما هى الحيلة التى فكرت فيها لمنع هذا الزواج ؟

— فكرت أن أعرض عليك أمام العرب أن الخزائن فارغة من المال وليس فيها ما يكفى لنفقات العرس ، لأن حكام الأقاليم والبلاد التابعة للدولة الكسروية لم يبعثوا بالضرائب منذ سنين .

وبذلك نحرك حمزة كى يذهب هو ومن معه الى هؤلاء الولاة فيحاربوهم ويبعدوا عنا وينشغلوا بهم ، ولابد أنهم سيلاقون فى ذلك أهوالا تفنيهم وتريحنا منهم .

— ولكن كيف يكون موقفنا مع هؤلاء الولاة وهم لم يمنعوا عنا الضرائب ؟

— لقد دبرت هذا الشأن .. سأبعث اليهم بكتب أخبرهم فيها بالمقصد الذى نرمى اليه ونحرضهم على قتل حمزة .

وفى اليوم التالى جاء حمزة الى الايوان ، فهش له كسرى وأحسن استقباله . فسر حمزة ورأى الفرصة سانحة لأن يطلب من الملك الوفاء بوعده ، فقال له :

— لقد وعدتنى يا سيدى بالزواج من ابنتك مهردكار ..

لم يدعه كسرى يتم كلامه ، بل ابتسم وقال له :

— انى أعرف ذلك ، وقد عهدت بتدبير أمر الأفراح الى الوزير بختك ، ويظهر أن هناك ما يمنع من الاستعجال ..

وأكمل بختك قائلا :

— اننا لا نزال مهتمين بهذا الأمر ، غير أن الزفاف يحتاج الى أموال باهظة حتى يكون لائقا ببنت ملك الملوك . وقد أمرنى سيدى أن أكتب الى الولاة أستحثهم على ارسال الأموال المضروبة

عليهم اذ مضى أكثر من سبع سنوات وهم ممتنعون عن أداء المطلوب ، وكتبنا اليهم وانتظرنا فلم يأتنا جواب من أحد ، وقد عرضت على سيدى أن يرسلك اليهم لتجنى منهم أموال السنين السبع وتخضع العاصى منهم فلم يوافق ، وطلب منى أن أدبر وسيلة أخرى . وانى أطلب اليك بلسان الملك وأقسم عليك بحياة مهردكار وحرمة البيت الحرام أن تحفظ مملكة صهرك وعمك كسرى أنوشروان وتخضع له كل عاص فى المملكة .

لما سمع الأمير حمزة هذا الكلام أطرق الى الأرض برهة ونار الغيظ تشتعل فى فؤاده ، وساد السكون فى المجلس ، والجميع ينتظرون جواب حمزة ، ثم رفع رأسه والتفت الى الملك قائلا :

— اعلم يا سيدى أنى خلقت لهذه الدولة ، وأرى نفسى مضطرا الى تنفيذ ما تأمروننى به ، وقد عزمت على أن أقصد تلك البلاد وأجمع لك الأموال والويل لمن يعص أمرى ، ولا أريد منك الا أن تفوضنى بأمر عام مختوم بختمك ليكون لى الحق أن أنوب عنكم فى ذلك .

٢٧ - أجنبي في لبنان

أصدر الأمير حمزة أمره الى جميع رجاله بالركوب ، وركب معه معقل البهلوان وباقى الفرسان وساروا يخترقون الفيافى والقفار الى أن وصلوا الى مدينة حلب ، فنزلوا فى خارجها حيث ضربوا خيامهم وكان القائم على حلب ملكا اسمه « نصير » وهو رجل عاقل يعبد الله فلما وصلت اليه كتابة كسرى فكر فى موقفه وقال فى نفسه : لو لم يكن حمزة مرهوب الجانب لما خاف الملك الأكبر وأبعده عنه بالحيلة وسعى فى هلاكه على يد غيره . ولهذا عول على أن يسالم حمزة ويصادقه .

وكتب حمزة الى نصير يعرض عليه أمر كسرى ، ويطلب اليه

دفع الأموال المتأخرة . فلما قرأ نصير كتاب حمزة جمع رجال دولته وعرض عليهم كتاب كسرى وكتاب حمزة وأفضى اليهم بما جال فى خاطره فاستحسنوه ووافقوا عليه ، وخرجوا جميعا لمقابلة حمزة فى المكان الذى نزل به . فرحب بهم وسلم عليهم . ثم قال الأمير حمزة :

— اعلم أيها الأمير أن الملك كسرى قد بعثنى لأجمع له الأموال المتأخرة لأنه فى حاجة اليها ، ولهذا أطلب منكم أن تجمعوا ما تجمع عليكم من سبع سنوات وتدفعوه الى فى أقرب وقت حتى نرحل الى بلاد أخرى .

— نحن طوع أمرك ، ومن أجلك لا نخالف كسرى ، غير أن الحقيقة أن كسرى ليس له فى ذمتنا أى شىء وقد استوفى جميع المطلوب منا .

وأطلع نصير حمزة على كتاب كسرى . وقال له انه انما أراد ابعادك وتعريضك للهلاك .

فقال له حمزة :

— اننى أعلم ذلك ، ولكنى أجاريه وأصبر عليه حتى يقتنع بخبث وزيره بختك ، وسترى بعد ذلك ما يسرك فيما يأتى من الزمان ، وتتخلص من دفع الأموال لعبدة النيران . وقد جئت

لغاية معينة وهى جمع الأموال ، وحتى لا يكون هناك حجة يحتج بها بختك أو كسرى فانى أريد أن تدفعوا لى عن سبع سنوات آتية ، وأعطيكم بما تدفعون ايصالا موقعا منى بتفويض من كسرى ، ولا يستطيع أحد أن يطالبكم بعد ذلك بشيء .

— اكراما لك لا نمتنع عن ذلك ، ولكن نرجو الانتظار لمدة عشرين يوما .

وفى خلال هذه المدة كان الأمير حمزة ورجاله فى ضيافة الأمير نصير ورجال دولته ، وقد اختلطوا جميعا ، وانعقدت بينهم أواصر المودة والصداقة . ولما تم جمع الأموال تسلمها الأمير حمزة وأمر بالرحيل .

وعندما وصلوا الى القسطنطينية استقبلهم ملكها « اسطفانوس » على باب المدينة بالترحيب . ودخلوا معه المدينة بعد أن ترجلوا وتركوا خيولهم فى الخارج لأن شوارع المدينة مبلطة بالرخام الأبيض المنقوش بعروق سوداء على نسق جميل ، والجدران مغطاة بألواح من خشب الجوز المدهون ، وبين كل لوح وآخر خط أصفر يلمع كالذهب ، فلما وصلوا الى قصر الملك وجدوا بابه من النحاس الأصفر المنقوش وعليه رسوم وتماثيل عجيبة الصنع ، وعلى جانبى الباب أسدان من النحاس كل منهما

بحجم الأســد الطبيعى وأعينهما متجهة الى من ينظر اليهما ، ولما دخلوا وجدوا من العجائب مالم تر عيونهم من قبل وما أدهش عقولهم من التحف والتماثيل التى صنعها قدماء اليونان .

قال الأمير حمزة لأسطفانوس :

— اعلم أيها الملك العظيم أنى لا أحب أن أبقى هنا طويلا ، لأننا نريد المسير الى بلاد أخرى .

وطلب منه احضار الأموال المطلوبة ، فجمع له مبلغا كبيرا من المال ودفعه اليه بعد أن أطلع اسطفانوس حمزة على حقيقة كسرى ونواياه .

ثم رحل حمزة ورجاله الى بلاد أخرى لقى فيها ما لقى من المسالمة والاكرام فى حلب والقسطنطينية . ولكنه لما وصل الى بيروت وجــد عليها حاكما اسمه كسروان ، وكان كسروان من الأبطال والفرسان الشداد ، ولما وصله كتاب كسرى استعد لملاقاة حمزة ورجاله .

ولما رأى حمزة كسروان يخرج اليه بجنوده سر بذلك وقال ان القتال فى الحال خير من التطويل فى الحصار .

والتقى الفريقان ، وازدحم الميدان بالفرسان ، ولعبت السيوف الصقال ، والرماح الطوال ، فى مقاتل الرجال . وقاتل العرب أشد

قتال ، وفعل حمزة أفعالا تقصر عنها مردة الجان ، وعفاريت السيد سليمان ، وكذلك فعل معقل البهلوان ، والأمير عقيل والأصفران ، ولما حل المساء دقت طبول الانفصال ، وامتنع الفريقان عن القتال .

وكان حمزة يريد أن يلقى كسروان وجها لوجه ، فيبارزه ويقضى عليه ، ولكن كسروان أمر رجاله أن يحملوا على العرب دفعة واحدة وهو فى وسطهم .

وفى المساء قال حمزة لأخيه عمر الكشاف :

— انى كلما حاولت أن ألتقى بكسروان وقت القتال غاب عن نظرى بين الجموع ، انه فارس شديد وشيطان مريد ، ينتقل من مكان الى مكان ، كأنه البرق فى اللمعان .

— عليك بالتبكير فى الغد قبل أن تستعد جموعه ، وهو يضطر أن يبرز اليك .

وعند الفجر كان الأمير حمزة فى ساحة الميدان يطلب مبارزة كسروان ، فما سمعه هذا حتى نهض اليه وأطلق لجواده العنان ، وحمل على حمزة حملة جبار عنيد ، فقابله بقلب أشد من الحديد ، واختلف بينهما الطعن والضرب ، ووقعا فى العنـاء والكرب ، وما زالا فى أشد قتال وأعظم نزال ، تارة يفترقان ، وتارة يجتمعان ، كأنهما أسدان ضرغامان ، أو جبلان حجبهما الغبار عن العيان ، حتى

كان العصر ، وقد رأى حمزة شدة كسروان ، فتعجب منه وشهد بأنه من الفرسان العظام . وكذلك كسروان ، رأى من حمزة فوق ما كان يظن ، وخاف أن يمضى النهار ولا ينال منه المرام ، لذلك صاح به وهجم عليه ، وبادره بضربة ظن أنها القاضية ، فضيعها حمزة فى الهواء ، وجاوبه بضربة أشد من ضربته ، فوقعت فى صدره ، فألقته قتيلا . وانتشر خبر موته وسرى الرعب فى قلوب قومه فتفرقوا فى كل مكان ، ورجع حمزة ظافرا الى الخيام وحوله أخوه عمر والثمانمائة الفارس الذين ولدوا معه فى يوم واحد .

وجاء أعيان بيروت الى الأمير حمزة ، وقالوا له ان كسروان لاقى ما يستحقه ، وانه ليس من أهل لبنان ، فهو أجنبى أغار اليهم منذ زمان وحكمهم بالظلم والطغيان ، ففرح الأمير حمزة من هذا الكلام ، وحمد الله على أن وفقه فى قتل كسروان ، واختار الأمير حمزة واحدا من أولئك الأعيان وأقامه حاكما على لبنان .

٢١ ـ في مصر

سأل الأمير حمزة أخاه عمر :

ــ ماذا تقصد بعد ذلك والى أين تتجه ؟

فقال له عمر الكشاف :

ــ نتجه الى مصر وندخل عاصمتها .

ــ من يحكم مصر ؟

ــ يحكمها ملكان عظيمان ، أحدهما « سكاما » والآخر « ورقا » وفيها عساكر كثيرة وأبطال عظام ، وهواؤها جيد مفيد للصحة .

ــ وأي آله يعبدون ؟

— هم مختلفو المذاهب ، بعضهم يعبد الأصنام ، وبعضهم النار ، وبعضهم العجل ، ويوجد بينهم أفراد يعبدون الله ويكرمون أنبياءه ، غير أنهم لا يقدرون على التظاهر لقلتهم .

واتجه الجيش العربى بقيادة حمزة الى مصر ، فمروا بالمدن الصغيرة والقرى ، لا يعتدون على سكانها ولا يؤذون أحدا ، بل كانوا على العكس ينفقون من الأموال الكثيرة التى جمعوها من مختلف البلاد . ولما أشرفوا على العاصمة ظهرت لهم عالية البنيان متينة الأسوار ، وأقاموا خيامهم فى مكان خال قريب من المدينة . وكتب الأمير حمزة الى حاكمى مصر « سكاما » و « ورقا » الكتاب الآتى :

« من فارس الحجاز حمزة العرب الى سكاما وورقا حاكمى مصر .

لقد وصلنا الى بلادكم ، ولابد أن تكون قد وصلت اليكم كتابة كسرى وشرح لكما ما شرحه لغيركما من الملوك الذين عرفوا الحق فاتبعوه ورأوا الباطل فخالفوه . فان أتيتما الى طائعين مخالفين لكسرى فانكما بذلك تدفعان عن بلادكما شر الحروب ، واذا دفعتما الى الأموال المطلوبة عن سبع سنوات فانى أعدكما ألا تدفعا بعد ذلك لكسرى أى شىء ، والسلام » .

وبعث عمر الكشاف بهذا الكتاب ، وأوصاه بأن يأتى بالجواب من سكاما وورقا ، فسار عمر حتى وصل الى دار الأحكام ، ودخل على الحاكمين ، وكانا قد عرفا وصول العرب ، وقبل ذلك وصلهما كتاب كسرى . ولما اطلعا على كتاب حمزة قالا لعمر :

— معاذ الله أن نحارب العرب أو نفعل غير ما يرضى أميرهم حمزة ، وسندفع اليه الأموال المطلوبة ، فعد اليه وأخبره أننا سنكون عنده بعد قليل مع السادات والأعيان .

وعاد عمر الى الأمير حمزة ، وكان جالسا معه الملك النعمان وكبار الفرسان ، فأبلغهم ما سمعه من سكاما وورقا ، وقال :

— هذا ما سمعته منهما ، ولكنى أحس أنهما يخفيان خلاف ما يظهران .

وبعد قليل جاء سكاما وورقا على رأس وفد من الأعيـــان ، وسلموا على العرب وأظهروا لهم الوفاق والمسالمة ، وطلبوا من حمزة ورجاله أن ينزلوا ضيوفا عليهم ويدخلوا المدينة ليشاهدوا عجائبها ويتمتعوا بمناظرها ، فوعدهم الأمير حمزة بذلك فى اليوم التـــالى .

قال النعمان لحمزة :

— لقد حذرنا عمر من سكاما وورقا ، واننى أخشى أن يكون وراء ترحيبهم تدبير للغدر بنا .

فقال حمزة :

— لا أظن ، واذا كانا يقصدان شرا فان الله سبحانه وتعالى يقينا منه .

واتفق الرأى على أن يبقى الجيش فى خيامه ، ويدخل حمزة ومعقل البهلوان ، حتى اذا حدث لهما حادث يمكن الجيش وبقية الفرسان أن ينقذوهما .

سأل سكاما وورقا عن بقية الرجال والفرسان لماذا لم يحضروا ، فأجاب حمزة بأنهم باقون فى المعسكر ولا يمكن حضورهم جميعا . فسكت الاثنان وفى نفسيهما غيظ .. كانا يريدان أن ينفذا خطتهما فى الجميع .

وقال سكاما لحمزة :

— ألا تحب أن تشاهد المدينة وترى القصور والقلاع ؟

— انى أرغب فى ذلك فعلا ، وقد سمعت عن عجائب مصر وآثارها .

ونهض معه معقل البهلوان ، وسار معهما سكاما وورقا ، فاتجهوا أولا الى النيل وتنزهوا على شاطئه ، ودخلوا الحياض

والرياض التى تسقى منه ، ثم طافوا بالقصور ، والأمير حمزة يتعجب من كل ما يشاهد وخاصة ما فى الأبنية من أعمدة رخامية طويلة ضخمة ، تبدو مع كبرها قطعة واحدة ، ودهش مما عليها من حفر ونقش عجيب . وعبروا النيل فى قارب أوصلهم الى قلعة من الحجر الصوان وبابها من الحديد السميك المصقول ، فدخل حمزة ومعقل مدهوشين باتساعها وكثرة غرفها ودهاليزها وانتهز سكاما وورقا فرصة انشغالهما بالمشاهدة والتأمل وأسرعا الى الخارج .. وأغلقا الباب عليهما .

اتنبه حمزة ومعقل على صوت الباب ، ونظرا فلم يجدا سكاما وورقا ، وعرفا حقيقة المكيدة التى دبرها الخائنان ، وجعلا يبحثان عن مخرج يخرجان منه دون فائدة ، فلم يكن هناك أى منفذ للخارج سوى طاقات مرتفعة جدا عن الأرض . وكانت المشكلة الكبرى هى أن يحصلا على ما يبقيهما على الحياة من ماء وطعام حتى يأذن الله لهما بالخلاص .

٢٩ - وكيل مراكب النيل

كان الشاب المصرى « لسمندار » الموكل على مراكب النيل من قبل سكاما وورقا — كان واقفا على شاطىء النيل عندما ذهب الأربعة فى القارب الى الشاطىء الآخر حيث القلعة ، وشاهد سكاما وورقا عائدين وهما بدون الضيفين العظيمين ، فارتاب فى الأمر ، ولا سيما أنه يعلم نيات الحاكمين الخبيثة ، وكان ساخطا على ظلمهما للرعية وبطشهما بالمخلصين من أبناء البلاد الذين عارضوهما، وطالما أرقه التفكير فى طريق الخلاص منهما .

وكان لسكاما بنت رائعة الحسن اسمها « درة الصدف » اعتادت أن تخرج فى الأمسيات الجميلة مع قهرمانتها العجوز للتنزه على شاطىء النيل ، فرأت اسمندار ، ورآها ، وأحبته وأحبها ،

ومهدت لهما العجوز سبل اللقاء . وزاد هم اسمندار .. فشغله التفكير كذلك فى علاقته ببنت الملك الظالم وكيف يحصل عليها ، ولا سيما أن الملك ورقا يريد الزواج بها ، كما أخبرته ، وقالت له انها تفضل الموت على الزواج بهذا الرجل الذى هو فى عمر أبيها .

قال اسمندار لدرة الصدف :

— ما رأيك فى أن نعمل على تخليص حمزة ومعقل من السجن ؟ وهما يخرجان وينضمان الى قومهما ، ويخلصون البلاد من هذا الحكم الجائر ، وتزول العقبات التى تقف فى طريق حبنا وزواجنا .

— فكرة عظيمة يا حبيبى .. ولكن كيف الطريقة ؟

وسكتت قليلا ، ثم قالت :

— أمهلنى قليلا حتى أفكر فى الأمر .

— اننى سأوصل اليهما بعض الطعام والماء من النافذة الخلفية العالية عندما يتأخر الليل بحيث لا يرانى أحد ، وعليك أنت أن تبحثى عن مفتاح القلعة بأى طريقة .

— اتفقنا :

ذهبت درة الصدف الى ورقا فى قصره ليلا ، وقالت له انها علمت أنه فى كدر من الأحوال الحاضرة المضطربة ، فجاءت تسرى عنه ، ففرح بها أشد الفرح ، ثم قالت له :

— ألا تشرب قليلا من الخمر ؟

— أحسنت ، وان كان وجودك معى يسكرنى من غير مدام .

وصبت له الكأس وقبلته فى لحيته ، وصارت تسكب ، وهو يشرب حتى غاب وعيه ، فقامت وفتشت فى جيوبه حتى وجدت مفتاح القلعة ، فأخذته وأسرعت عائدة ..

مكث حمزة ومعقل فى سجنهما بالقلعة يومين ، قضيا اليوم الأول فى حزن وكدر ، وندما على حسن ظنهما بسكاما وورقا ، ولكن عندما تسلق اسمندار الجدار وصعد الى النافذة الخلفية ، وألقى اليهما بالطعام والماء ، شعرا بالاطمئنان ، وأكلا وشربا ، وسرى الى نفسيهما الأمل فى الخلاص . وقد شكرا اسمندار على حسن صنيعه ، وقالا انهما لابد أن يكافئاه على معروفه .

وفى مساء اليوم الثالث سمعا صرير المفتاح فى الباب ، فانتبها ، وتاقت نفساهما الى معرفة القادم عليها ، وأشهرا سيفهما وتقدما من الباب .. وفتح الباب الضخم واذا فتاة رقيقة رائعة الجمال تدخل عليهما .. قالت :

— لا بأس عليكما .. أخرجا حالا والحقا بقومكما .

— من أنت ؟ وماذا دفعك الى مساعدتنا ؟

— يكفى الآن أن تعلما أنى من قبل اسمندار الذى أتى اليكما بالطعام من النافذة .

— شكرا لكما ، ولكن أخبرينا ماذا حدث لقومنا ؟

— لقد اشتبكوا مع جيش سكاما وورقا فى معارك شديدة وقتلوا قائده « غيتشم » .

وبينما هم كذلك واذا بباب القلعة يغلق عليهم بحركة سريعة أحدثت صريرا مفزعا .. فصاحت درة الصدف وتهاوت الى الأرض حزينة قلقة .. خافت أن يكون أحد من قبل أبيها أو ورقا يراقبها .. وكذلك معقل البهلوان شمله الخوف والقلق ، أما الأمير حمزة فقد لاح له من خلال الباب وهو يغلق بسرعة شبح كعمر الكشاف ، ولهذا صاح به :

— افتح يا وجه القرد .. ليس هذا وقت الهزل ..

فارتد الأمن والطمأنينة الى معقل وقال :

— من تقصد ؟

— انه عمر .. لقد عرفته بعقلى قبل أن يراه بصرى ..

وفتح عمر الباب ، وعرفوا من ضحكه وحالة سروره ان العرب دخلوا المدينة .

وكان اسمندار قد أحضر زورقا فركبوا الى الضفة الثانية ، وهناك قال الأمير حمزة لأسمندار :

— اترك عملك فى هذا المكان وتعال معنا ، فأنت فى الغد ستكون ملكا على هذه المدينة . ففرح اسمندار وسار معهم ، حتى وصل حمزة الى قصر سكاما وورقا حيث فتش عنهما فلم يجدهما ، وعلم أنهما هربا ، فعاد الى طرقات المدينة ، وأسرع اليه أهلها

يطلبون الأمان ويبدون الطاعة . فأمر أخاه عمر أن ينطلق فى الأسواق وينادى العرب أن يكفوا عن أهل المدينة ويمتنعوا عن السلب والنهب .

وفى اليوم التالى توجه الأمير حمزة الى قصر الأحكام ومعه معقل البهلوان والملك النعمان وكبار العربان . وجاء كبراء المدينة وسلموا عليهم ، وناب عنهم فى الكلام أحدهم فنهض وقال :

— أيها الأمير العظيم ، لقد وصلت الينا أخبارك وعرفنا صفاتك وعدلك شجاعتك ، واعلم أن ما بدا من سكاما وورقا انما يقع ذنبه عليهما . أما الرعية فهى الآن مستريحة الى ما حدث اذ تخلصت من ظلمهما وصارت تأمل فى العدل والأمن والرخاء . وقد فوض قومى الىّ أن أدعوك الى تولى مهام بلادنا وتكون ملكا علينا .

فشكرهم حمزة وطمأنهم على أنفسهم وأموالهم وقال :

— لا تخشوا بأسا ، فاننا ما جئنا هذه البلاد الا لتحصيل الأموال المضروبة عليها لمدة سبع سنوات كغيرها من البلاد التى مررنا بها ، فامتنع حكامكم فلاقوا جزاءهم . وانى أقيم عليكم حاكما منكم قد اخترته لما تبين لى اخلاصه وصلاحه ، وهو أسمندار وكيل مراكب النيل .

ثم طلب حمزة من أسمندار أن يسعى فى جمع الأموال المطلوبة عن سبع سنوات ، فأجاب طلبه وسعى فى جمعها وقدمها اليه .

٣٠ ـ رسول من حلب

أقام العرب فى مصر مدة توطدت فيها علاقتهم بالمصريين ، وخاصة بعد أن راق الحال فى مصر وعم الخير وساد العدل بين الجميع . وذات يوم كان حمـزة جالسا فى خيمته عـلى عادته اذ كان يرفض سكنى القصور ، واذا برسول يدخل عليه ويقف بين يديه ويقول له :

ــ أنا يا سيدى من مدينة حلب ، من رجال أميرها نصير ، وقد بعثنى اليك لأخبرك أن كسرى لما وصلت اليه أخباركم فى البلاد التى مررتم بها ، وعلم باتفاق حكامها معكم ؛ أخذ يستعد لقتالكم حين رجوعكم الى المدائن ، فجمع الجيوش حتى امتلأت بها السهول والمرتفعات حول المدينة .

فوجىء حمزة بهذا الخبر ، وسكت برهة ، ثم قال :

— هذا هو الذى أريده ، وسوف يعلم كسرى هو ووزيره بختك من منا يكون الرابح ومن الخاسر وانى واثق بالله وبأنه تعالى سيعيننى عليهم مهما جمعوا من العساكر والفرسان .

وأمر العرب بالرحيل . واتجهوا أولا الى حلب ، فاستقبلهم الأمير نصير بالترحيب ، وضربوا خيامهم فى ضواحى المدينة ، وأقاموا هناك عدة أيام ريثما يستريحون ويعرفون المزيد من أخبار كسرى ، فقد أمر حمزة أخاه عمر الكشاف أن يذهب متخفيا الى المدائن ليقف على حقيقة الحال هناك ويعرف أخبار الجيوش التى جمعها كسرى ، فأجاب عمر طلبه وتزيا بزى حجاب العجم وأخذ ما يحتاج اليه وانطلق من حلب فى خفة الرياح ؛ وسار عدة أيام وليال ، حتى بلغ المدائن ، فوجد الاستعداد للقتال قائما على قدم وساق ، وقد استطاع أن يصل الى الوزير بزرجمهر ؛ فعرفه بنفسه ، وأفضى اليه بما جاء من أجله ، فقال له بزرجمهر :

— وأين أخوك ؟

— فى حلب ، وقد عاد منصورا غانما أموالا غزيرة جدا ، وهو فى انتظار عودتى اليه لأطلعه على حقيقة أحوال كسرى وعساكره .

— ان أخبار أخيك وصلت الى الملك كسرى ، وغاظت الوزير بختك العدو الأكبر للعرب . فأدخل فى عقله أن العرب بعد عودتهم لابد أن ينزعوه من ملكه ويطردوه من بلاده . فأمر كسرى بجمع الجيوش وقرب اليه رجلا يدعى « زوبين الغدار » حاكم بلاد زوال وكموال ، وهو من أشد الفرسان فى هذا الزمان ، وولاه قيادة الجيوش ووعده بزواج ابنته مهردكار على شرط أن يقتل حمزة ..

فقال عمر :

— لابد أن يلحقه أخى حمزة بالذين عاندوه ولقوا حتفهم على يديه .

— انى أنصحكم ألا تدخلوا حروبا فى هذه الأيام ، بل أخبر حمزة أن يبقى فى حلب الى أن تمضى أيام النحس ، فقد تبين لى أنها ستكون وبالا عليه .

عاد عمر ، وأبلغ حمزة ما سمعه من بزرجمهر ، وما شاهده من الجموع المحشودة للقتال ، فاضطرب حمزة وكاد يطير صوابه من شدة الانفعال ودفعه الغيظ الى الاصرار على الرحيل الى المدائن برغم نصيحة بزرجمهر .

وفى خيمته خارج المدائن كتب حمزة الى كسرى :

« من حمزة البهلوان فارس هذا الزمان ومذل الجبابرة

والشجعان الى الملك كسرى أنوشروان صاحب التخت والايوان .

« اعلم أيها الملك الكبير أنى كنت قد أخلصت لك الود وخدمتك خدمة صادقة أمينة ، رجاء أن تسمح لى ببنتك مهردكار ، وأنت تقابل حسناتى بالاساءة ، وتنقاد الى وزيرك بختك الخبيث ، حتى بعثتنى الى جمع الأموال من عمالك وولاتك ، وزعمت أن لك فى ذمتهم سبع سنوات متأخرة ، وفى الوقت نفسه بعثت اليهم برسائلك تطلب منهم قتلى والايقاع بالعرب . ولكن الأمر جاء على خلاف ما تريد ، لأن الله الذى نعبده يحرسنا ويرعانا . فجمعنا المطلوب عن سبع سنين سلفا بعد أن قهرنا كل من عصانا . وقد جئنا الى هذه البلاد ومعنا من الفرسان كل جبار عنيد ، من فرساننا ومن انضم الينا من فرسان البلاد التى مررنا بها ، ومعى من الأموال أحمال من الذهب والفضة غير الابل والأغنام التى لا تعد . وأنا مستعد أن أسلم اليك كل هذه الأموال اذا أجبت طلبى وزوجتنى مهردكار . أما اذا امتنعت وأبيت الا أن تظل مخدوعا بكلام بختك فليس بيننا وبينكم الا الحرب والقتال . وآخـر ما أريد أن أقوله لك هو السلام » .

وما انتهى الوزير بزرجمهر من قراءة هذا الكتاب أمام كسرى حتى نهض بختك وهو يرغى ويزبد ويقول :

— هذه الوقاحة ليست غريبة على العرب . لانهم قوم أجلاف اذا كرموا شمخوا . وهاك أيها الملك العظيم البرهان على صدق كلامى فقد جمع الأموال وطمع فيها .

ولم يكن كسرى بحاجة الى مزيد من ايغار صدره على حمزة فقطع كلام بختك بقوله لعمر الكشاف الذى حمل الكتاب ووقف ينتظر الجواب :

ارجع الى حمزة وقل له انه لا بنات عندنا له ، فاذا سلمنا الأموال ورحل الى بلاده عفوت عنه ، والا فانى سأربطه بالحبال وأجازيه أشد مجازاة حتى يكون عبرة لغيره .

وفرحت مهردكار بوصول الأمير حمزة ، ولكنها اغتمت بسوء العلاقة بينه وبين أبيها ، وصارت تود أن تصل الى حمزة بأية طريقة وتعيش معه وتقاسمه الشقاء والهناء ؛ ومما زاد حزنها وقلقها وعد أبيها لزوبين الغدار أن يزوجه بها ، وقد رأته من النافذة فوجدته شنيع الخلقة كبير الرأس قصير القامة ضخم الساقين كبير الأنف أحول العينين . واستسلمت للصبر وما تأتى به المقادير .

وفى اليوم الثانى من وصول العرب الى المدائن ركب الأمير حمزة جواده الأصفران ، وركب من حوله رجاله ، وضربت طبول الحرب من ناحية العرب ، حتى تجاوبت بأصدائها السهول والوديان

وجاوبتها طبول العجم بأمر الملك كسرى ، وركب زوبين الغدار فى المقدمة .

واصطف الفريقان ، فى ناحيتى الميدان ؛ وآن أوان الحرب والطعان ، وصاح الأمير حمزة صيحة الأبطال ، وهجم هجوم الأسد الرئبال ، وكذلك فعل باقى الرجال . والتحم العجم بالعرب ، وهاج بحر المنايا واضطرب ، وما انقضى النهار الا وقد شفى حمزة غليله وترك القتلى تلالا وآكاما وأوقع بجيش العجم وأذاقهم كئوس الحمام .

ودارت الحرب فى اليوم التالى أشد هولا . وشاهد كسرى فرسان العرب يقاتلون ويقتحمون صفوف الفرس ويفرقونها فى كل ناحية كما تطارد البزاة أضعف العصافير . فقال لوزيره بختك وهو بجانبه :

— أى وزيرى ، انى لست راضيا عن هذه الحالة التى كنت السبب فيها فقد ألقيت العداوة بينى وبين العرب مع أنهم كانوا طائعين وموالين لنا .

— مهلا يا سيدى فان الحرب لا تزال رهن الرجحان ، ومن المؤكد أن الفوز لنا ، انظر الى صهرك زوبين .. كيف يقتحم الأهوال كأنه الأسد الرئبال .

— ان ما يفعله زوبين لا يذكر بجانب ما يصنعه فرسان العرب .

— اصبر يا سيدى ، فسترى لمن يكون النصر فى النهاية .

اتصل القتال بين العــرب والعجم خمسة عشر يوما ، كان عدد الفرس يتناقص يوما بعد يوم ، وظهر ضعفهم أمام العرب ، وثبت لكسرى أن الحرب اذا استمرت هكذا فستحل بهم الهزيمة لا محالة ، فدعا بختك وقال له وهو فى أشد حالات الغضب :

— لابرحت روح أبيك فى مغائر الثلج . وغضبت عليها النار .. فقد غششتنى وزيفت على الأمور حتى صرنا الى هذه الحال ، فانظر فى أمر يخلصنا وينقذ شرفنا .

— عندى تدبير عظيم ، وسترى حمزة فى الغد مقتولا بسيف زوبين ، وحرمت أرواح آبائى وأجدادى من النار ذات الشرر وبردتها الثلوج اذا لم يتم ذلك ..

٣١ ـ خطف بنت كسرى

دعا بختك زوبين وقال له : اتبعنى . وذهب به الى قصره وأخرج سيفا من صندوق حديدى قديم ، وأراه لزوبين وقال له :

ــ هذا السيف مسقى بسم الأفاعى . اذا أصاب جسم انسان فلا شفاء له ، واذا ضرب به الحديد براه ، فاذا استطعت أن تصل به الى حمزة وتمكنت من ضربه فى أى جزء من جسمه سرى السم الى كل بدنه ولن يمكث الا بضع ساعات .

ــ عندى فكرة .. ألبس ملابس العرب ، وعندما ينشب القتال فى الصباح أتسلل بينهم كواحد منهم وأقاتل معهم وأرقب حمزة حتى أتمكن منه بضربة من هذا السيف .

كان من عادة الأمير حمزة فى القتال أن ينتقل من مكان الى مكان يطعن صدور الأعداء ويراقب حال رجاله ليدفع عنهم ما يحيق بهم ، وعمر الكشاف من ورائه وبين يديه لا يتركه . وفى هذا اليوم تفقد معقل البهلوان فلم يره ، ولم يسمع له صوتا ، فجال فى المعسكر يبحث عنه فلم يعثر عليه ، فانشغل باله واضطرب فكره وأمر عمر أن يذهب للبحث عنه وبينما هو واقف على هذا الحال اذا بزويين الغدار يغتنم هذه الفرصة وينفذ اليه بضربة من السيف المسموم ، فجاءت الضربة على جبهته ، وشعر كأن أتونا قد اشتعل فى جسمه من رأسه الى قدمه ، فصاح من شدة الألم ، وانبطح على ظهر الجواد ، فعاد به ركضا الى الخيام فأسرع اليه الرجال من كل ناحية ، وانتشر الخبر فى المعسكر ، وجاء عمر يجرى ووضع أخاه على سريره وربط له جرحه ، ودعا له « أسطون الحكيم » الذى جاء معهم من القسطنطينية ، فأخذ يضع له المراهم ويسكن الجرح وحمزة يصيح ويتوجع من شدة الألم .

وفى المساء وبينما كان الرجال يحيطون بالأمير حمزة فى وجوم وقلق ، واذا بمعقل البهلوان يقبل راكبا على فيل عظيم وخلفه على ظهر الفيل مهردكار ..

كان معقل البهلوان قد فكر فى الحرب التي طالت ولا يعرف

أحد متى تنتهى ، فكر فى طريقة تنهى هذه الحرب ، ووجد أن القتال فى هذه المرة قد نشب بسبب « مهردكار » بنت كسرى ، فحمزة يأبى الا الحصول عليها ، وكسرى ومن خلفه بختك يمنعها عنه ، فرأى أن يأتى بمهردكار الى الأمير حمزة ، وما دامت هى تحبه فستكون المهمة ميسرة ، ويسكنهم بعد ذلك أن يرحلوا عن هذه البلاد ويعودوا الى مكة .

انسل معقل من ساحة القتال ، ودار وراء جيوش الفرس وهم مشغولون بالحرب ، واقتحم باب المدينة وركض بفيله العظيم نحو قصر مهردكار وهو يصرع كل من يعترض طريقه . ورآها تطل من النافذة وتنظر الى ساحة القتال بعيون حزينة قلقة فناداها :

— أى مهردكار ، قد نلنا النصر والفخار ، فاحفظى عرش أبيك وانزلى لنذهب الى حمزة ، لكى يرحل العرب عن هذه الديار وينتهى هذا الدمار .

فما سمعت كلامه حتى أسرعت الى جواهرها فحملتها وحملت ما استطاعت من ثيابها وأسرعت الى معقل ، وقفزت وراءه على ظهر الفيل . وكان قد خيم الظلام وارتدت هي برداء سابغ فلم يلحظها أحد .

لما رأت مهردكار ما حل بحبيبها الأمير حمزة جزعت وبكت ولكنها ملكت نفسها وفكرت ثم قالت :

— لا شك عندى أن هذا الجرح من سيف مسقى بالسم ولا يعرف دواءه الا بزرجمهر الوزير . وما سمع عمر الكشاف ذلك حتى أسرع بتغيير زيه ولبس ثيابا فارسية وغير ملامحه ، وركض حتى دخل على بزرجمهر وقص عليه ما حدث ، وكان بزرجمهر قد علم به فى مجلس كسرى حين جاء زوبين الغدار يزهو بفعلته ، وراح بختك يهنئه بالزواج الموعود من مهردكار ، فذهب الى بيته حزينا ولكنه الآن يحمد الله لمجيء عمر قبل فوات الأوان . أعطاه زجاجة الدواء وبين له كيفية استعماله وقال له :

— قل لحمزة وفرسان العرب أن يرحلوا فى هذه الليلة ويقصدوا مكة المطهرة ، فالخير والتوفيق يأتيهم من هناك .

تقدم عمر من حمزة ، وسكب قليلا من الدواء على جرحه فزال الألم وانطفأ لهيبه ، ثم دفع عمر الزجاجة الى مهردكار ووكل اليها علاجه والعناية به .

وأذن فى معسكر العرب بالرحيل ، وحمل حمزة فى هودج مريح وبجانبه مهردكار تعتنى به وتسهر على راحته . وحملوا كل

ما معهم من الأموال والأنعام وساروا متجهين الى مكة .

وعندما علم الفرس فى الصباح برحيل العرب سروا وفرحوا فقد كفاهم ذلك شر القتال ، وجعلوا يتحدثون فى أمر زفاف مهردكار الى زوبين الغدار . ولكن فرحتهم لم تتم ، بل انقلبت الى عواصف من الغم والأكدار لما انكشف أمر رحيل مهردكار مع العرب .

أرغى كسرى وأزبد ، وقام وقعد ، واضطرب الوزير بختك ، وأسقط فى يد زوبين الغدار ، وأرسلوا العيون وراء العرب لمعرفة اتجاههم والى أين يقصدون ، فسارت العيون من خلفهم حتى تأكد لهم أنهم يسيرون الى مكة ، فعادوا وأخبروا كسرى بذلك .

وأمر كسرى بجمع الفرسان من كل مكان فى مملكته واعداد جيش كبير العدد لغزو بلاد العرب .

٣٢ ـ الدفاع عن مكة

وصل العربان الى مشارف مكة المطهرة وتنشقوا نسيم أرضها فانتعشت به أرواحهم ، ولما وصلت أخبار قدومهم الى الأمير ابراهيم أبى حمزة كاد يطير من الفرح وخرج لاستقبالهم ومعه كبار قومه . وسأل الوالد عن ولده فقيل له : انه فى الهودج لأن به جرحا على وشك الالتئام والشفاء ، فتكدر من ذلك ، ولكنه شكر الله على عودة ولده سالما ، وتفاءل خيرا بشفائه .

وأنزلوا الأمير حمزة ومهردكار فى بيت واحد ، وظلت تقوم على علاجه وهى موزعة المشاعر بين الحزن على ما أصابه والسرور بقربه ومقاسمته التوجع والألم .

وتقدم الأمير حمــزة نحو الشفاء ، وشعر بالســعادة لقرب مهردكار ، ولكن ذلك لم يجعله يغفل عن الفرس وما يتوقعه منهم . ودعا أخاه عمر وقال له :

— ان العجم لابد أن يســيروا ق أثرنا الى هــذا المكان فلن يتركوا مهردكار والأموال التى فى أيدينا ، ولا ريب أنهم يظنون أنى مت بضربة السيف المسموم . فأريد أن تحصــنوا المدينة وتقيموا عليها الحراس . وتبلغ جميع الفرسان أن يكونوا دائما على استعداد .

وقال حمزة لمهردكار وهو يدرك فى نفسه أنها لابد تفكر فى أمر الزواج :

— اعلمى يا أعز الناس عندى أنك وحدك التى ملكت قلبى ، ولن أفارقك ما دمت حيا ، غير أن زواجى سيتأخر حتى أريح بالى من جهة أبيك ، واذا ساعدتنى العناية وراق لى الزمان جعلت يوم العرس من الأيام التى تضرب بها الأمثال .

وسكتت هى حياء وخجلا ثم قالت :

— ان مجرد وجودى معك هو كل شىء بالنسبة لى ، ولا أريد الا أن أبقى الى جانبك أشاهدك فى الصباح وفى المساء .

ولما جاءت الأخبار بأن جيوش الفرس قادمة الى مكة وفى

مقدمتها كسرى ووزراؤه وزوبين الغدار .. فرح حمزة وقال لرجاله :

— نريد أن تكون هذه المرة هى القاضية عليهم .

فقال له عقيل أمير الثمانمائة الذين ولدوا مع حمـزة فى يوم واحد :

— اننا لمثل هذا ، ونحن ننتظر هذه الفرصة وهى فرصة الدفاع عن بيت الله الحرام ، وسترى منا ما يسرك .

وأمر كسرى بمحاصرة مكة ، ولما كان يعتقد أن حمزة قتل فقد كتب الى العرب الكتاب التالى :

« من الملك كسرى ملك الفرس الى النعمان ملك العربان ومن هم فى رفقته .

« بعد ذكر النار صاحبة الفعل والاقتدار . أقول لكم انظروا فى أمر أنفسكم واختاروا لها السلامة وارجعوا الى طاعتى ، وأعيدوا الى ابنتى التى أخذتموها وهربتم بها غير حاسبين لعظمتى حسابا ، فان لم تعيدوها الى معززة مكرمة وفى خدمتها أكبر أمرائكم مع الأموال التى جمعتموها من عمالى وولاتى ، زحفت عليكم بهذا الجيش العظيم وخربت هذا البيت الذى تكرمونه وتعظمونه وتحجون اليه .. والسلام » .

ولما دخل رسول كسرى بهذا الكتاب على أمراء العرب وهم

مجتمعون ، دهش الرسول عندما رأى حمزة ، ووقف مبهوتا ، اذ كان يظن أنه مات .

وقرأ النعمان الكتاب ، وسكت الجميع فقال حمزة للرسول :

— قل لسيدك — شفاها — أن لا جواب عندنا غير الحرب ، وليعلم أن العرب أهل العزة والفخار ، وقد اعتادوا ركوب الأخطار ولن يعودوا الى الطاعة بعد أن تسنى لهم أن يرفعوا عن كواهلهم نير كسرى وظلمه هو ووزيره بختك الخائن الغدار ، وقل له ان بلاد العرب لن تخضع بعد اليوم لأجنبى مهما كان .

ما ان تبلج نور الصباح وبرق من خلال الظلام حتى خرج العرب لملاقاة الفرس ، وركب الأمير حمزة جواده الأصفران وتقدم الصفوف ، ولبس عمر الكشاف ثوبا من الجلد الأسود قصير الكمين ضيقا يضغط على جسمه ويبدو وكأنه جلده ، وتقدم بين يدى أخيه حمزة كأنه فرخ من فروخ الجان .

ولما سمع كسرى طبول العرب أمر أن تضرب طبول الفرس فأسرع فرسانهم الى خيولهم فألجموها واعتلوا ظهورها وتقدموا الى ساحة الحرب ، وبينهم زوبين الغدار .

ولما التقت العين بالعين وتم نظام الفريقين ، صاح الأمير حمزة بصوت أشبه بالرعد القاصف :

— ويلكم يا أهل الخيانة والغدر .. هل ظننتم أن حمزة قد مات فتبعتم العرب الى هذه الديار ؟ ألا تعلمون أن الغدر سيىء العواقب لا يلجأ اليه الا كل لئيم محتال يعجز عن القتال فى ساحة المجال ؟ ها قد جاءكم اليوم قضاء هذا الزمان ومذل الجبابرة وأهل الطغيان حمزة البهلوان فخر العجم والعربان .

وهمهم همهمة الأسود ، واقتحم صفوف الأعداء وهو يصول ويجول ويطعن فى الصدور فيمدد الفرسان على الأرض ، بعضها بالطول ، والبعض بالعرض ، وحذا حذوه معقل البهلوان وسائر الفرسان وجميع العربان . وما مضت ساعة من النهار ، حتى اضطرم لهيب النار ، ولحق شررها الكبار والصغار ، وحل بالفرس الويل والدمار .

ودام الأمر على ذلك الحال الى أن علت الشمس قشرة الأصفرار ؛ وسارت الى الغرب تتطلب الاستتار ، فدقت طبول الانفصال ، وكف الفريقان عن القتال ، ورجع العجم الى الوراء وقد فقد منهم جم غفير وقتل قوم كثير .

وكان يصحب الفرس الأمير « فرمزتاج » ابن الملك كسرى جاء مشتاقا الى رؤية أخته مهردكار ، فلما رأى ما رأى فى ذلك النهار ، وما حل بقومه من الويل والدمار ، اشتعل فى قلبه لهيب

الشوق الى شقيقته ، وكاد ييأس من مشاهدتها طول حياته ، وانفرد بنفسه وجعل يشرب الخمر حتى سكر وزين له السكر أن يلبس ملابس البدو ، ويذهب بين ديار العرب حتى يصل الى أخته ، وخيل اليه أنها حين تراه تنهض اليه وتعود معه .

وكشف أمره عمر الكشاف ، فقبض عليه ودفعه الى رجاله وأوصاهم بالمحافظة عليه ، ثم ذهب الى مهردكار وقال لها :

— ان أخاك فرمزتاج أصبح فى يدى فماذا تريدين أن أفعل به ؟

فقالت مهردكار :

— دعنى يا عمر من أخى وأبى فانى لا أعرف أهلا لى غيركم .

— ولكن ماذا تريدين أن يفعل به ، هل نقتله أو نطلق سراحه ؟

— أبقوه عندكم حتى ينظر الأمير حمزة فى أمره .

ولما كان صباح اليوم الثانى اصطف الصفان وتقابل الفريقان واشتبك الرجال بالرجال واشتد القتال وحمى النزال ، وصاح الأمير حمزة وهجم ، وراح يطيح بالرؤوس تلو الرؤوس ، وطاف معه عزرائيل يقبض الأرواح . وحامت الطيور والكواسر ، ونزلت على أجسام القتلى لتشبع بطونها من لحومهم .

وشعر الفرس بشدة قتال العرب وأيقنوا أنهم سائرون الى فنائهم ولا خلاص لهم من يد أعدائهم الا بالفرار . ولما رأى كسرى

آنوشروان ما حل بجيشه وشاهد العرب تبيد قسما كبيرا منــه وتطارد الباقين الى الوراء . انقلب الضياء فى عينيه ظلاما ، وقال لبختك مؤنبا ساخطا :

— روح أبيك تتقلب على جبال الثلج وتحرم الدنو من النار .. فقد أهلكنا ســوء تدبيرك وها هم رجالنا يتقهقرون وهم يرون الموت بأعينهم .

— هلم يا سيدى الى الهرب ، فان اليوم ليس يومنا .

وكان فرسان العرب يدنون منهم فأسرعوا يركضــون على خيولهم ، والعرب يتأثرونهم بالضرب فى أقفيتهم ، وبحث حمزة عن زوبين الغدار فلم يعثر له على أثر .

ورجع العرب بعد أن أهلكوا من جيش العجم نحو ثلثه ، وكانوا قد بعدوا عن مكة مسيرة ثلاث ساعات فى أعقاب المعتدين المهزومين . ولما قربوا من مكة خرج الأمير ابراهيم مع جمع كبير من أهــل المدينة وبين أيديهم تضرب الدفوف وترتفع الأصوات بالأناشيد ، وقبل ابراهيم ولده وهنأه بالنصر والسلامة .

وأقيمت الولائم ووزعت الغنائم ، وفرقت الأموال على الفقراء والأيتام ، وباتت مكة تلك الليلة تضم فرسانها بين أحضــانها قريرة العين بما حققوه لها من مجد وعزة وانتصار .

٣٢ - مفاجأتان

نهض الأمير حمزة من فراشه نشيطا مستبشرا ، ودعا اليه أخاه عمر وأمره أن يحضر اليه فرمزتاج ، ودخل على مهردكار فوجدها جالسة فى انتظاره ، ولما قامت لاستقباله قبلها فى عينيها وقال لها :

— يصعب على يا قرة العين أن أخبرك بأن عساكر أبيك قد انكسرت وأنه سار مهزوما ، ولابد أن يكون بلغك هذا الخبر .

— يكفينى أن أراك سالما من نوائب الأيام ، وأما ما أصاب أبى فهو ما استحقه مع رجاله لأنه ترك الحق وأعمى الباطل عينيه فمال الى بختك وسمع منه وانقاد له وحمل نفسه ما لا يطاق ، وجر عساكره ورجاله الى ساحة الوبال ، وانقلب عليك بعد أن

وعدك الوعد الصادق بأن يزفنى اليك مكافأة لك على قتل عدوه خارتين وارجاع بلاده اليه . وقد كنت أميل الى طاعته وأحرص على رضاه ، لولا أنه أراد أن يبيعنى لزوبين الغدار بتزويجى منه مكافأة له على الغدر بك ، هذا وان أبى ليس على دين الحق ؛ لأنه كافر بالله هو وقومه ويعبدون النيران .

فنظر اليها حمزة نظرة المحب الواله وقال :

— ان لك عندى اليوم — يا أعز الناس عندى — مفاجأتين .

وهنا دخل عمر بفرمزتاج ، فنهض حمزة واقفا ، وجعل يفك وثاقه بيده وهو يقول له :

— لم يهن على أيها الأمير العظيم أن تذل ويساء اليك وأنت ابن كسرى أنوشروان وأخو مهردكار ، ونحن العرب — وان نكن قد اضطررنا الى محاربتكم — لا نزال نعرف قدركم ونطمع فى عودتكم . ولو نظر أبوك الى صالح نفسه وصالح بلاده ، لما عادانا بعد أن أخلصت له .

صافح فرمزتاج أخته ، وقال وهو فى منتهى السرور برؤيتها وباكرام حمزة له :

— لعنت النار بختك ألف لعنة .. فهو جرثومة الشر ، ولولاه

لما كانت العداوة وهذه الحرب بل كان أبي بخير ونعمة وكنتم فى طاعته وصداقته .

ونظر الأمير حمزة الى مهردكار وقال لها مشيرا الى أخيها :

— هذه هى المفاجأة الأولى ..

— وما الثانية ؟

سكت حمزة قليلا ، ثم قال لفرمزتاج :

— كنت أود أن أرسلك من هذه الساعة الى المدائن باحتفال وتعظيم ، غير أنى أريد أن تشاركنا فى الاحتفال بزفاف أختك وتفرح معنا ، ثم تسير فتخبر أباك بذلك عساه يرجع عن السعى فى خرابه وهلاك قومه ، ويعلم زوبين الغدار أن أمله قد انقطع وأن التى يعلق آماله على زواجها قد تزوجها من هو أحق بها .

فشكره فرمزتاج وأبدى سروره بهذا الزواج ، وقال لأخته :

— لقد كنت على صواب فى حبك للأمير حمزة ، فهو رجل من أكرم الناس وأرقهم مع أنه من أشد الفرسان وأشجعهم ، وأنا منذ هذه الساعة أخاصم كل من يخاصمه وأحب كل من يحبه ، وأعد نفسى سعيد اذ أحضر زفافك اليه فى هذه البلاد .

وقال حمزة لفرمزتاج :

— انى أعرف قدر العجم وملوكهم وأحترمهم مهما صنعوا معى

وأنا لم أكن البادىء بالشر ، وانى حتى هذه الساعة اذا سالمنى أبوك ووزيره بختك سرت اليه بنفسى وقدمت اليه طاعتى وخدمته واعتبرت ما صدر عنه من معاداتى كأنه لم يكن .

ولم تكن مهردكار — بعد ذلك — بحاجة الى أن تسأل عن المفاجأة الثانية فقد عرفتها ، وكانت مطرقة حياء وهى تناجى نفسها :

بشراك يا قلبى بشراك .. بعد قليل أصبح زوجة للأمير حمزة .




الدار القومية (مصر)



الدار القومية للطباعة والنشر

صـ

الثمن ٢٥